مختارات "الفكر المسيحي"/٥

همسات أبو فادي

جرجس القس موسى

بيبليا للنشر
الموصل ٢٠٠٧

ظهر في

سلسلة "مختارات الفكر المسيحي"

١. همسات أبو ناوي/ ج١	بغداد ١٩٨٥	١٦٨ص	١٥٠٠ دينار
٢. أبت هذه مشكلتي	بغداد ٢٠٠٤	١٠٠ص	٢٠٠٠ دينار
٣. أسئلة وأجوبة	الموصل ٢٠٠٦	٢٢٨ص	٢٥٠٠ دينار
٤. افتتاحيات	الموصل ٢٠٠٧	٥٠٠ص	٣٥٠٠ دينار
٥. همسات أبو ناوي/ ج٢	الموصل ٢٠٠٧	١٧٨ص	٢٠٠٠ دينار

سيظهر

٦. من وحي الإنجيل

سعر خاص للأجزاء الخمسة سوية: ١٠٠٠٠ دينار فقط

الكتابان الأولان من السلسلة كانا باكورة "مختارات الفكر المسيحي" من دون أن يحملا، لا الاسم ولا الرقم!

وفي عام ٢٠٠٦، عمدت دار بيبليا للنشر (مركز الدراسات الكتابية) في الموصل إلى مواصلة نشر "المختارات"، وقد تزامن ظهورها مع حصول "الفكر المسيحي" على الدالية الذهبية من الاتحاد الكاثوليكي العالمي للصحافة في ٨ حزيران ٢٠٠٧

همسات أبو فادي

المجموعة الثانية

كلمة الناشر

حين ظهرت "الهمسات" عام ١٩٨٥في كتاب ضمّ ٧٧ همسة مختارة أسرّ بها أبو فادي -وقد كشف عن هويته- في أذن قراء "الفكر المسيحي" وقلبهم ووجدانهم... لم يكن يخيل إليه آنذاك انها ستكون باكورة سلسلة "مختارات الفكر المسيحي"!

وها هي "الهمسات"، في جزء ثانٍ، يصدي هو الاخر لـ ٧٧ همسة منتقاة، اتخذ بعضها نبرة خافتة أحياناً، وصارخة أحياناً؛ صوتاً مدوياً تارة، وهامساً تارة أخرى! وقد يكون للافصاح عن هوية أبي فادي أثر في همساته منذ عام ١٩٨٤ وحتى استقالته من تحرير هذا الباب...

لقد سجّل فعلياً الجزء الأول من الهمسات (١٩٧١-١٩٨٣) الرقم ١ في سلسلة "مختارات"، وتلاه الرقم ٢ عام ٢٠٠٤عبر زاوية "أبت هذه مشكلتي" التي امتدت على الأعوام ١٩٨٠-١٩٩٤، وبقلم الأبوين عبد السلام حلوة ويوسف توما. وأبت دار بيبليا للنشر إلا أن تجعل امتداداً لهذين الإصدارين من خلال نشر كتاب "أسئلة وأجوبة" عام ٢٠٠٦والذي اتخذ الرقم ٣، وتلاه في ايار كتاب دسم ضمّ ٢٠٢ افتتاحية لرئيسي التحرير السابقين تحت الرقم٤. وها هي" الهمسات" في جزئها الثاني تحتل الرقم ٥، في انتظار الرقم ٦ الذي سيطرح للنشر زاوية طالما أحبّها القراء منذ انطلاقتها عام ١٩٧٨، هي باب "من وحي الإنجيل"!

ويسرّ دار بيبليا للنشر أن تكون هذه الاصدارات قد تزامنت مع حصول "الفكر المسيحي" على أعلى جائزة يمنحها الاتحاد الكاثوليكي العالمي للصحافة، في ختام مؤتمره المنعقد في شيربروك (كندا) في ٨ حزيران ٢٠٠٧ -وكان قد ترشح لها سبع مؤسسات إعلامية عالمية، وفازت الفكر المسيحي على المدالية الذهبية بالاجماع "للدفاع المثالي عن حرية الإعلام"؛ وكان للافتتاحيات والهمسات معاً ثقلهما في التقييم الذي خرجت به لجنة التحكيم الدولية في البند الثالث من القرار:

"الفكر المسيحي التي تأسست عام ١٩٦٤ تعد أطول صحيفة مسيحية عمراً في العراق. فلقد قامت بهدف بناء حرية أكبر للصحافة، وتطوير أفضل لوسائل الاعلام في العراق والشرق الأوسط، وذلك في بيئة سياسية ودينية وثقافية لم تكن ودوداً، وبشكل عام، تتبع حرية الرأي".

مع تحيات مركز الدراسات الكتابية
الموصل ١٩ تموز ٢٠٠٧

بيبليا للنشر

سلسلة "مختارات الفكر المسيحي"/٥

همسات أبو فادي

المجموعة الثانية

بقلم

جرجس القس موسى

منشورات

مركز الدراسات الكتابية

الموصل-العراق

٢٠٠٧

﴿ يحكى أن﴾ جماعة من الناس
ذهبوا ﴿عند العرافة﴾
ورووا لها ﴿والعهدة على الراوي﴾
أن شيخا جليلا كان يهمس
في آذان أبناء عشيرته
مرة ثلاثين عاما
دون كلل أو ملل...

مقدمة المجموعة الأولى

في يوم من أيام الغربة المريرة ضاق جلد أبي فادي به ازاء تخمة البعض وفاقة البعض الآخر، وازاء العنصرية والقمع والمظالم في هذا أو ذاك من بلاد الله القريبة والمتوسطة والنائية، ولم يجد ملاذاً لكربته غير ربه.

ولما كان، لشدة اختناقه، قد فقد النطق ومعه أبسط قواعد البلاغة والتعبير لعرض حاله بما يليق ويفيد... لم يجد خيرا من حماره –وهو المسالم الطائع أبداً– ليعبّر عما فيه في استغاثة فريدة الى ربه. أن يستغيث حمار بربه –حتى وان كان الحمار حمار أبي فادي– لم يرق لأحد القراء، فاقتطع الورقة التي تحمل همسات عدد أيلول ١٩٧٨ من مجلة الفكر المسيحي التي تنشرها، وبعث بها الى الإدارة مع هذه العبارة الرقيقة: "تعاد الى الحمار الذي كتبها... مع الشكر".

شكرت الله ربي في حينها، وشكرت الأخ الذي استكثر على حماري أن يستغيث بربه، وحسناً فعل باعادة "الهمسة" الى صاحبها... لأنها لم تكتب له أساساً!

ومرة أخرى أرسل قارىء آخر رسالة عتاب مطوّلة الى رئاسة التحرير في أعقاب "بطاقة عيد" حررها أبو فادي الى مار يوسف

بمناسبة عيد ميلاد ابنه يسوع (كانون الأول ١٩٧٨). واسترسل صاحب الرسالة يدحض الأخطاء اللاهوتية التي وقع فيها أبو فادي ويستنكر جهله في معطيات الكتاب المقدس حول شخص يوسف بن داود ويدافع بحماس محامي الدفاع عن "خطيب مريم ومربي يسوع". وفرحت أنا حين اطّلعت على الرسالة لكون مار يوسف قد ربح محامياً جديداً لقضيته من دون أجور. أما الأخ المستنكر فقد أجابته رئاسة التحرير في باب "تعليقات وآراء" (شباط ١٩٧٩) مشكورة بما نصه: "لا يهدف كاتب (بطاقة عيد) –وهذا شأنه في كل همساته– الى تقديم بحث أو دراسة، انما يطرح خواطر، بأسلوب أدبي يقترن فيه الجد بالمرح، وتحتل فيه الأمثولة الجادة مكانها الى جانب النقد".

هذه هي اذن "همسات أبو فادي"!

انها مشاهدات من الواقع، واستذكارات شخصية، واعتبارات من وحي الأحداث، وتأملات في باطن الزمن والأسفار، وشطحات صوفية أحياناً، و..."بهلوانيات" أيضاً، جادة وضاحكة. ولقد جاءت في تنوّعها كسفينة نوح تحمل من كل فجّ عميق، ولكنها كلها ملتصقة ومستوحاة من معانيات الناس أو من بواطن أحاسيسهم اللاواعية، أو جمعت من أرصفة الشوارع وزوايا الأزقة والطرقات والبيادر وحلوق الجبال... حاولت أن أستخرج منها الأمثولة أو أوقظ النائمين

بهدهدات خفيفة أو بنقرات لطيفة أو بمسامير أردتها نحيفة...
وفي الغالب بقراءة ما بين السطور!!

هذا هو الهدف وهـذه هي العبرة. أما الأسلوب، فان كان طابعه العام يتّسم بالمرح وخفة الدم -وقد يكون ثقيلاً على بعضهم-، فلكل "همسة" مفرداتها وأسلوبها الخاص بخصوصية الموضوع والاتجاه اللذين تعالجهما... ولها أيضاً من يسمعها بأذن غير التي سمعها جاره، كما رأينا مع الصديقين الأنفي الذكر في صدر هذا المدخل! كفاها فخراً أن إحداها كلّفت قارئاً لها خمسة آلاف دينار عدًّا ونقداً يوم استوقفه "تلكس مستعجل" (نيسان ١٩٨٠) يستنجد بذوي الشأن لتوفير كتاب الإنجيل لطالبيه، فأخذته الغيرة ووزّع على عموم القطر ٥٠٠٠ نسخة مجانية على حسابه من هذه "المادة" التي كانت مفقودة من السوق آنذاك -وعلمت أنها لا زالت شحيحة حتى الآن: من له أذنان سامعتان فليسمع!-. هكذا فـ همسات" هي، بالأصل، باب شبه ثابت تبنته مجلة الفكر المسيحي منذ ظهورها في الموصل كمجلة شهرية متعددة الأبواب عام ١٩٧١. والهمسات التي تنشر مستقلة في هذا الكتاب بعنوان "همسات أبو فادي" سبق وأن نشرت تباعاً في المجلة المذكورة، وهي تضم ٧٧ همسة تمتد على الفترة من كانون الثاني ١٩٧١ وحتى أيلول ١٩٨٣. وهذه المجموعة ما أبصرت النور في هذا الوشاح لولا تشجيع

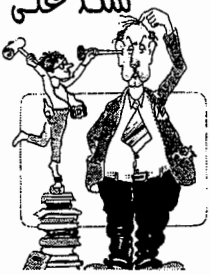

الأصدقاء كي تعمّ الفائدة، ولولا رغبة كثير من القراء الظرفاء كي تلوّن أمزجة أخرى غير أمزجتهم!

فشكري الخالص الى هؤلاء والى كل الذين شجعوني وأمدّوني بافكارهم وخبراتهم أو ألهموني من قريب أو بعيد للكتابة "الهمسات"، ممن أعرفهم أو الصدفة وضعتني على دروبهم.

والله ولي التوفيق...

أبو فادي

الموصل في تشرين الثاني ١٩٨٣

مقدمة المجموعة الثانية

ظن أبو فادي أن مهمته قد انتهت، وأن الناس قد استوت أمورهم، وما عادوا بحاجة الى من يذكّرهم بمطبّات الطرق، لأنهم تعلموها على ظهور قلوبهم، وان الجوع في طريقه الى الزوال، وأن السمك الكبير شبع بما فيه الكفاية لكي يحتاج الى ابتلاع السمك الصغير، وأن الديمقراطية قد استوردت أخيراً من أرقى المناشىء العالمية، فأصبحنا في غنى عن البدائل السابقة، وأمسينا كلنا بخير، والحمد لله، لا همّ لنا سوى سماع قصائد الشعراء تتغنّى بروائع العهد الجديد.

توهّم أبو فادي في هذا، كما توهّم في معظم ما كتب. في شيء واحد لم يتوهّم، وهو حاجة الناس في أيامنا الى الضحك... وشرّ البلية ما يضحك. رحم الله أستاذاً لنا طالما ردّد، وابتسامة لطيفة تلامس الخبث الطفولي على شفتيه، في مداعبة أنيسة للحيته الفضية التي لم أرها قطّ منتظمة، اذ كان يقول: ما من شيء يقال بالضحك ليس له أساس من الصحة!

أما عن الضحك... فمنه ألوان كما كتب غي دي لاريكودي. منه ما ينبت في زاوية الفم، وينمّ عن استعلاء أو احتقار أو خبث مبطّن؛ ومنه ما هو قهقهة بلهاء أو اشارة غباء؛ ومنه ما هو تكشيرة تكشف عن الأنياب... أوَكيست مأساة أيامنا أن ضحكاتنا كلها صارت تكشيرة في تكشيرة؟!... ومنه ما يحتلّ كامل الوجه، يصاحبه بريق صاف للعيون، وارتعاش منعش لتقاسيم الوجه يعكس السعادة والهناء، فتؤخذ بعدواه دون عناء... وأجمل الضحكات ضحكات الأطفال...

على كل حال اني أصرّ على أن الضحكة مفيدة للصحة، والنكتة دواء يصفه الأطباء... وخفة الظلّ تستر جمًّا من الهموم. وهنا أحيلك الى "البقرة الضاحكة" في هذه المجموعة!

في أحد الأيام أهديت نسخة من كتاب "همسات أبو فادي" الى أحد الأصدقاء، وكتبت له الإهداء بالشكل التالي: "اقرأ شيئاً منها كلما شعرت بحاجة الى الضحك، واستخرج منها ما شئت من العبر".

أجل، يا عزيزي، يا قارئ الفنجان الثاني من "همسات أبو فادي"، لن أضحكك من أجل الضحك، والا فلك في مشاهدة المسرحيات المصرية ما يكفي مؤونة. وخاصة لن أضحكك من دون سبب... لأن... لكل مسمار يدقه أبو فادي في أذن ما رنّة لا تشبه سابقتها، وكل لسعة -كلسعات النحل- وراءها عسل حرّ.

على آخر همسة في الفكر المسيحي (تشرين الأول- كانون الأول ٢٠٠٠) بعنوان "أودعناكم... في أمان الله"، كتبت لي فادية -وهي قارئة ولوعة استسمحتني مناداتها بهذا الأسم- مناشدة اياي أن لا أترك الساحة، ونسجت من عناوين بعض الهمسات "همسة" من أروع الهمسات. قالت: "ان (أجدادنا البابليين) كانت (أولوياتهم للبناء)، أما نحن أحفادهم الطفرانيين فأولوياتنا للمسامير تدق في الآذان... أرجو أن لا يكون اصراراً (أودعناكم... في أمان الله)، لأنه (من غير المعقول) أن تنسى (خرافك الأعزاء) وتقول لهم: (با..ع، با..ع)!! و (با..ي...با..ع)!!!

لم أنسك يا فادية أينما كنت الآن ضائعة في بقاع الدنيا، واليك والى المخضرمين والمخضرمات أمثالك من أصدقاء أبي فادي أهدي هذه المجموعة الثانية. كالمجموعة السابقة،

هي أيضاً تتكوّن من ٧٧ همسة! ان همستك التي انضممتُ اليكِ في كتابتها، هي الوحيدة التي لم تنشر سابقاً، وهي خاتمة هذه المجموعة الجديدة التي تظهر بمناسبة منح الإتحاد الكاثوليكي الدولي للصحافة المدالية الذهبية لمجلة الفكر المسيحي، التي فيها نشرت تباعاً، بين كانون الأول ١٩٨٣ وحتى نهاية الألفين.

والله من وراء القصد، كما كان يقول الأقدمون!

الموصل في ١٥ أيار ٢٠٠٧ أبو فادي

مشاهدات من موسكو

(في ظل الإتحاد السوفييتي)

١

وجوه قاسية وعسكريون مدججون بالسلاح في كل زاوية من زوايا المطار وكأنهم مصفحات بشرية بمعاطفهم الخضراء الطويلة حتى الأخمصين، و"شفقاتهم" الجلدية السميكة التي تغطي الأذنين والجبين. في الطرف الآخر من الحاجز الحديدي أناس في حركة محمومة يتدافعون صامتين ويشرئبون بأعناقهم نحو امتعتهم القادمة ببطء على الحزام السيار. فيهم الأبيض الأوربي، والأصفر المغولي والتتري، والأسود الأفريقي، والأسمر الشرقي، والناعم النيبوني، والمفلطح الصيني.

أين أنا يا ترى؟ هل حقاً أنا في موسكو؟ أحُلمٌ هو أم يقظة؟!

وانتشلني من ذهولي صوت رجل الامن المختص: "باسبورت"! ناولته جوازي بابتسامة لياقة تكاد تكون مرتجفة، فصار ينتقل بعينيه الصارمتين من صورتي الى وجهي ويتفحصني ان كنت حقاً صاحبهما... أخيراً أفرج عني فتنفست الصعداء...

... ومن مشارف جامعة موسكو الشامخة اطللنا على نهر موسكوفا المتجمد (فدرجة الحرارة، عفواً درجة الانجماد ٢٧ تحت الصفر فقط، وستهبط بنا حتى -٤٥) وكأنه شارع لا نهاية له قد هجره الناس... على الرصيف المدفون تحت الثلج عجوز تلتحف بإزار خشن وفي قدميها جزمتان من عهد تولستوي، تسير بخطى مسرعة وهي تتوكأ على عصا مرتجفة باتجاه كنيسة صغيرة مجاورة يغطي الثلج

مدخلها ونصف سياجها الخشبي... هي احدى بضع كنائس لا زالت مفتوحة للعبادة -فاليوم يوم أحد-.

تلك العجوز... ومشهد بعض رجال كنا نراهم يحملون شجرة الميلاد -أو شجرة رأس السنة كما يدعونها هناك- الى بيوتهم في الضواحي، أيقظوا في نفسي الصورة التقليدية "لروسيا المقدسة" كما نقرأها في قصص دوستويفسكي او نراها في الأفلام الروسية القديمة!

وتستمر جولتنا... الى مسرح بولشوي الشهير الذي يربض قبالته تمثال ضخم لماركس وقد بيض الثلج شعره المسترسل ولحيته الكثة. من بعيد نرى صفاً طويلاً طويلاً متعرجاً من الناس الصامتين وكأنهم في مأتم، لا يأبهون للثلج المتساقط بكسل: انهم زوار قبر لينين.

ماركس ولينين، نبيا روسيا الجديدة، تجد صورهما العملاقة وتماثيلهما وأقوالهما في كل ساحة وعلى كل جدار وفي وسط كل محطة قطار... ولكن اذا دخل الاثنان في تأريخ الاتحاد السوفييتي واصبحا من بناته الأبرزين، فتاريخ روسيا المؤمنة لا زال ماثلاً كالشاهد الصابر... في الساحة الحمراء التي تطل عليها كنيسة القديس باسيليوس بقبابها المخروطية الزاهية الألوان، وفي قلعة الكرملين نفسها التي تزدحم في باحاتها الكنائس والقباب والصلبان... وفي هذا الناقوس العملاق الجاثم تحت أسوارها فاغراً فاه ولا يدق الا للسلام، كما قالت دليلتنا السياحية الحسناء.

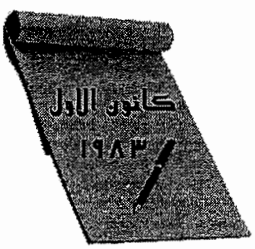

٢ أخي عبد السلام

(بمناسبة وفاة الأب عبد السلام حلوة الدومنيكي في بغداد)

انها اول رسالة أكتبها إليك، لذا فقد ارتبكت كيف أبدأ! فلطالما اعتدنا التحادث وجهاً لوجه ومناقشة افكارنا ونظرتنا الى الأشياء مباشرة حول فنجان قهوة او سيكارة روثمن حين تتوفر، او في دردشة مع الشلّة تتخللها بعض من قهقهاتك السريعة الصافية كصفاء الطفولة.

أذكر في الأيام الأخيرة قبل رحيلك كيف هدّدتَني -وقد وَقَعَتْ لي حاجة لديك- أن لا تفعل شيئاً إن لم أطالع كتاباً فرغتَ من وضعه! وأذكر مرحك المتميز وتعليقاتك الخفيفة وانطلاق صوتك بالأغاني القديمة في تلك الأيام، وكأني بك تعوِّض لنا، بعد كل تحسن، عما ألقاه فينا من قلق تواترُ الهبوط في صحتك... وها أنذا اليوم أراني أتأمل صورتك المجلّلة بالسواد وأنت جالس بثوبك الأبيض والأسود تحتضن انجيلك بيسراك، بل تشهره متحفزاً لاعلان الكلمة. وعلى ظهر الصورة أقرأ "وصية" كُتِبَتْ بخطٍ أقل ما قيل فيه أنك لا تُحسَد عليه. أما أنا ففحوى "الوصية" هو الذي يستهويني.

لقد استقصيتُ فيها سبعة افكار، اعتبرتُها سبعَ نوافذ تطل على عالم نفسك الداخلي، كأسرار سبعة غنت طاقاتك وأعطت المعنى لحياتك، في مراقي تسامي هذه الحياة وفي توتراتها على السواء:

- أول الأمر لمست الايمان اللامحدود بالله مقروناً بحب كبير وبثقة راسخة به، رغم رهبة الموت، مما لا يشعر به إلا الأبناء،

عندما تتحدث عن "الروح الذي ينقلك الى الحياة وجهاً لوجه مع الذي احببته من أعماقك".

- معرفة الجميل، وهي من صفات النفوس الكبيرة، عندما تسجل شكرك "لكل من ساعدوك في اكتشاف يسوع".

- وطنيتك الصادقة وحبك لأرضك ورفاقك "الذين جعلتهم قطعة من وجودك".

- التفاؤل وفرح الحياة. ومن ذا ممن عرفك تغيب عنه ابتسامتك ومرحك ومشاركتك الفعلية والمعدية في مراسم أفراحه وأنسه. "المستقبل المشرق" للأجيال الصاعدة، تقول. أوَ لَمْ توصِ ايضاً بأن يكون الفرح وشاح موتك ودفنتك، وأن "أفضل طريقة لمحبتك هي الشعور بالسعادة والفرح"، لأن الله خلقنا للسعادة والفرح!

- الأمانة للاصدقاء، وتلك شيمة الأكرمين، عندما تريد ان يكون قبرك في الأرض، في التراب بين اصدقائك. انك لم تنس "تحية من الأعماق" أضفتها الى صديق يتلظى حنيناً في سجون الأسر.

- روح الفقر والتجرد، عندما تقول بأن نفسك ذاتها ليست ملكك.

- وأخيراً البعد الجماعي والحس الكنسي، عندما رغبت في قداس جماعي لدفنتك يشترك فيه اخوانك. نَمْ قريراً، فما شئت قد صار، وأساقفة الكنيسة كلهم تجمعوا لتوديعك.

أ تكون قد مت اذن؟!

لا، أقول! فاذا غادرتنا بالجسد في رحلة طويلة عبر دروب الصمت، فلنا الرجاء باللقاء. وفي انتظار ذلك انت حي بيننا ما دمت في قلوبنا تتكلم، وتكتب، وتصلي، وتقرأ، وتضحك، وتنادي، وتحب، وتسمع... وتضم الورود التي نقطفها لك في مزهريات ترفعها من فوق مثواك كباقات صلاة وغمار بخور الى مذبح الرب.

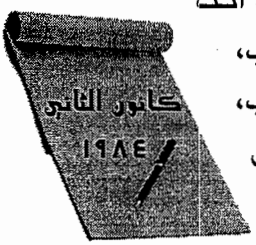

٣ لو كنت...

قال المرحوم عبد الحليم حافظ:
لو اني اعرف ان البحر عميق جداً ما أبحرت.
وقال نزار قباني في الحب:
لو كنت أدري أنه باب كثير الريح... ما فتحته.
لو كنت أدري أنه عود من الكبريت... ما أشعلته.

ومع ذلك فأنا أقول:

لو كنت وزيراً للتموين لفتحت سوقاً مركزية في بيت كل مواطن عراقي لتشبع غريزة التهافت والشراء لديه، دون ان يكون ملزماً بفقدان فردة من حذائه عند باب سوق الثلاثاء، كما ذكر الزميل داود الفرحان.

ولو كنت عضواً في المجمع العلمي لاقترحت دعوة تجار السوق السوداء وبعض موظفي الدوائر والمخازن الى مؤتمر لغوي لوضع قاموس بالمفردات الشائعة جداً، على ان تتمثل فيه عبارتا "ماكو" و"ممنوع" واشتقاقاتهما.

لو كنت رئيس وفد في أحد مؤتمرات القمة العربية لأقترحت تشكيل هيئة دائمة تابعة لجامعة الدول العربية باسم "لجنة المصالحات والوساطات" او "وحدة اطفاء الحرائق العربية" مهمتها معالجة خلافات الأشقاء التي اصبحت حالة ثابتة وليس استثناء.

ولو كنت جريئاً لأسكتُ وعّاظا كثيرين في وسط وعظتهم لشرودهم في متاهات خطابية تشبه الكلمات المتقاطعة في عدم تجانسها وضحالة أفكارها، حين يلف ويدور أصحابها ولا يدرون لا اين وصلوا ولا كيف يختمون.

لو لم يضحك الناس عليّ لركبت حماراً بدل باص المصلحة لقضاء اشغالي ومراجعاتي في العاصمة لبطئه وتعذر ايجاد موطئ قدم فيه.

ولو كنت مهندساً في المجلس البلدي في الموصل لطالبت بصلاحيات لكسر الجزرة الوسطية في الشارع الممتد من الجسر الثالث وحتى "الترافيك لايت" الأوحد قرب الجامعة، وزرعها بالزهور. ولرفعت كل هذه الأحواض الأسمنتية المتبقية في بعض الأركان كهياكل عظمية متفككة ومنسية ورميت بها في المزبلة، وأوصيت النحاتين والصفارين والنجارين لصنع مزهريات وسنادين تليق بأم الربيعين.

لو كنت مديراً لشرطة المرور لأعدت غرامة الخمسة دنانير لمخالفي تقاطعات المرور من المشاة.

ولو كنت مؤيد البدري لأدخلت فقرة جديدة في برنامج "الرياضة في اسبوع" لرياضة معاكسة الشباب للبنات في الشوارع والأسواق، ليس بالكلام وحده، بل بتسجيل أهدافهم بالاكتاف ايضاً، وبالمطاردة بالسيارات.

واخيراً، لو لم أكن مغفلاً لما استسلمت لهذه الأحلام، ولما تمنيت هذه التمنيات!

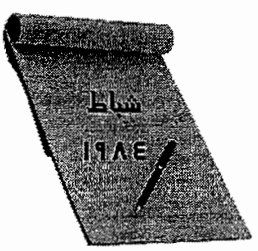

٤ عصافير الجنة

طالما سحرتني هذه العصافير التي تُدعى بعصافير الجنة بألوانها الزاهية ونعومة أرياشها، ورقة مناقيرها، وصفاء عيونها، وبحركتها الدائمة، وكأني بها، في ضآلة أجسامها وتظاهراتها العاطفية الصاخبة، فراشات عاشقة تزقزق في اقفاص تضيق بها. وفي كل مرة أشهد منها قفصاً اعود لأتساءل: ترى من أين جاءها هذا الأسم: "عصافير الجنة"؟ فأجيب نفسي: لعل الحب من فعل الجنة، فجاء اسمها من فعلها! وأقتنع من جوابي عندما اسمع غيرهم يسمونها "طيور الحب".

حب في قفص؟ طير من دون حرية؟ فراشة أسيرة؟ عاشق وقيود؟... أية جنة!!

وجاءني الجواب الشافي من تقليد اسطنبولي يرقى الى العهد البيزنطي مفاده ان قطعاناً غزيرة من هذه العصافير الصغيرة ترتمي في موسم هجرتها الخريفية كل عام، على ساحل فلوريا. فتقع اسيرة شباك الصيادين منهوكة القوى، فيحملها هؤلاء في أقفاصهم الى ساحات الجوامع والكنائس في اسطنبول، فيشتريها الناس كنذر، ويطلقون سراحها للفور، لتشفع فيهم وتحمل نياتهم الى السماء وتنتظرهم بباب الجنة.

من هذه الأسطورة الشعبية القديمة يصوغ الروائي التركي المعاصر يشار كمال قصة شيقة، ظاهرها يداعبك كنسيم البوسفور، وباطنها حقل ملغوم، فيقول احد ابطالها -وهم من الصبية-:

نحن، مهنتنا ان نصطاد هذه العصافير، أن نأسرها. لسنا نحن الذين اخترعنا هذه العادة. انها موجودة منذ الأزل. منذ قديم الزمان يأسر الصيادون العصافير، وأهل اسطنبول يعيدون الحرية اليها.

فينبري رفيق له، وقد رقّ قلبه للعصافير المتدافعة داخل سجنها:

يا لجمالها! من يملك قليلاً من الرحمة في قلبه، من له قليل من روح الديانة وخوف الله، من يطمع بشبر في الجنة... ولا يشتري منها خمسة او عشرة، ويعيد اليها حريتها! أية جريمة ارتكب هؤلاء الصغار ليقبض عليهم؟ نحن لم نأسرهم لنعذبهم، بل لنتيح لغيرنا ان يحررهم... ولكن اسطنبول اصبحت مدينة كفرة، يا عم، ولا أحد يهمه أمر الجنة!

أهو ترويج البائع لبضاعته، ام موعظة دجالين يدفعون بغيرهم الى الجنة لتغنية بقائهم، وان لم يذعنوا لدعوتهم لعنوهم وزجوهم في عمق جهنم وبئس المصير!

هكذا تمتزج معاناة البشر بمعاناة الطير، وتتداخل مصلحة الظالمين بمصلحة المظلومين... ولم يعد يدع منطق المتاجرة بالإنسان وبقيمه، ولا هموم المصالح الأنانية واللاأبالية او القمع -وكلها أقفاص أقوى من أقفاص اسطنبول- لم تعد تدع مكاناً، في أيامنا، لفرح لحظة عابرة، او لحركة يد تنفتح بسخاء لوجه الله... من اجل الحرية وكرامة الانسان والتفكير ببعد غير بعد الربح والخسارة والمصلحة.

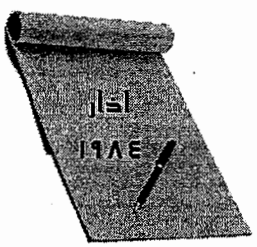

٥ إيحاءات نيسانية

في نيسان احتفل بعض الأصدقاء بذكرى زواجهم الكذا على مشهد من اطفالهم -ومنهم من مزج ذكرى زواجه بذكرى ميلاده بروح ترشيد الاستهلاك. وفيه تزوج آخرون او بالكاد طووا شهرهم العسلي آسفين، وغيرهم خطبوا او ودّوا لو أصابتهم العدوى... بينما لا زال قسم ثالث يضع رجلاً ويرفع أخرى، دون أن يقرر بين سلمى وسلوى!

الى هؤلاء كلهم، ولاسيما الى الصنف الأخير، والى كل من يبحث عن تشخيص لعلته، من القدامى ومن المبتدئين، ارفع هذه الإيحاءات:

اذا فاجأت نفسك وانت تحلم بها،

اذا حفرت اسمها على دفاترك وضممته في قلبك كالوشم،

اذا شعرت بالغم وانت بعيد عنها،

اذا انتابتك الرعشة حين تراها ثانية،

اذا اضطربت وهي بقربك،

اذا تكلمت معها همساً وانت وحدك معها،

اذا اردت ان لا يسمع الناس وشوشتك في اذنها: "أحبكِ"، وأردتهم، مع ذلك، ان يعرفوا كلهم بأنك تحبها،

اذا تُقتَ ان تكون افضل مما انت عليه

لمجرد انها تفكر فيك كذلك، وتريدك كذلك

اذا لم تَخَفْ شيئاً

سوى ان تتجاهلك او تصغر في عينيها

اذا المشاجرات الصغيرة اصبحت ذكريات طيبة،

والمواعيد المختلسة كالبخور الصاعد،

اذا تمنيت من اجلها ان تكون فناناً وشاعراً

واردت ان تهدي لها القمر في يوم ميلادها،

ولم تجد في يدك سوى وردة،

اذا كنت مستعداً ان تقطع الدنيا من اجل رؤيتها،

اذا عرفت ما تبتغيه وما يشغل فكرها بمجرد النظر الى عينيها،

اذا رأيتها زوجة واماً وصديقة،

اذا أويت الى فراشك وَتَمْتَمَتْ شفتاك خلسة صلاة من اجلها...

فأنت تحبها، وستعرف هي انك تحبها!

لا تخش ان تبوح لها بذلك...

ولكن حذار من ان تقوله في أول نيسان!!...

٦ ابن بطوطة وأسفاره

يا طالما حسدتُ الرحالة العربي الذائع الصيت ابن بطوطة على ما رأى وطاف من بلدان الله المعروفة وغير المعروفة في زمانه، وكم وددتُ لو كنت مرة في كروانه. لاني مع حكمة الشاعر القائل:

إني رأيتُ وقوفَ الماءِ يُفسدُهُ ... إنْ ساحَ طاب وان لم يجرِ لم يَطِبِ
والأسْدُ لولا فراقُ الغابِ ما قَنَصتْ ... والسهمُ لولا فراقُ القوسِ لم يُصِبِ

وإذ أُغلقتْ عليّ ابواب السفر، رُحتُ استذكر بالخيال وقائع اسفار أَفلَتتْ، فيها الحلو وفيها المر:

وكانت أول أرض تطأها قدماي بعد العراق هي بيت المقدس في زمن كانت الدرب اليها سالكة. بلغناها بعد عشرين ساعة من الرمال والصحارى والحجارة السود. واكملنا حجتنا للقيامة ثم خرجنا الى العم يعقوب لِيَشِمَ اذرعنا بوشم الزيارة. وبلغنا بيت لحم وفيها حجاج من الأفرنج. وبجوارها دير في واد لرهبان نمّستْ لحاهم، حرامٌ على الأناث ولوجُه، ولو من بنات السلاطين. ونزلنا بجبل لبنان. واصابنا الذهول امام البحر في المغيب، وكأنه صفيح يلتهب او حوت جبار يلتهم قرص نار. وأبكرنا الى السوق والناسُ في هرجٍ ومرجٍ وذهابٍ وإيابٍ، فالتجارة سيدة الاحكام، يمارسها الحوذي والقهوجي ورجل السياسة وكاتب المقال، وكل مواطن عنتر بن شداد. وركبنا البحر الى ارض الروم ورأينا في مدينة تدعى ميلانو، في ساحة كنيسة، خلناها جبلاً منحوتاً لارتفاعها ودقة صناعتها، صبياناً يشترون حَبّاً تلقطه

الطيور على اكفهم، لا تؤنيهم ولا يؤنونها، ولولا الخجل كنا شويناها نحن للعشاء. ومنها امتطينا قطاراً طوله فرسخ ونيف يمخر الجبال والبحيرات حتى وصلنا سلاسل وعرة تكسوها الثلوج يقال لها سويسرة، مناخها عليل، وقممها منتجعات، واهلها مسالمون لا يعرفون الصياح. ثم انتقلنا الى نجدٍ يقال له تيرول تابع للنمساء، بتنا ليلة في قرية في الجبال، فتياتُها اكثر من شبابها، دعوننا للرقص معهن فاعتذرنا بالاعياء -والصحيح استحياء لجهلنا عاداتهم- فضحكن منا! وفي الشروق اخذنا عصا الترحال الى بلاد الجرمان. والجرمان رجالهم اشداء مجنّون، ونساؤهم حسان فارعات، ومدنهم نظيفة وواسعة، ويحبون النظام. ومن هناك قطعنا سهولاً خضراء فسيحة يكثر فيها البقر حتى بلغنا مدينة تشقها البحار يقال لها امستردام، فيها طوابير من الشباب الملتحين والفتيات بثياب رثة، يقعدون الارض اجواقاً اجواقاً، ويدخنون شيئاً كالحشيش. فارتبنا منهم حتى كَشّوهم بخراطيم من الماء، فانتفضوا كسرب جافل من الطير. وبعد يومين هبطنا الى مملكة البلجيك، فطالعنا في احد انفاق ما يسمونه بلسانهم المترو، فتى وعلى ذراعه حزمة من الكتب والمنشورات، تدعو الى توحيد الاديان في امة واحدة. فقلت ربي زدني علماً وايماناً، فأجابني لو شاء ربكم لجعلكم أمة واحدة! وأعطيت الصبي درهماً وانصرفنا.

والى رحلة بطوطية قادمة.

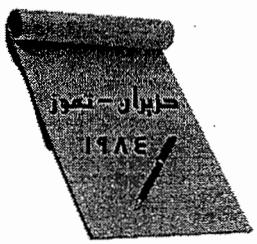

كلام الله الى عبده سمعان

٧

كان في الفترة الاخيرة يترك العنان للحيته تنمو على هواها لبضعة اسابيع او اشهر، فيختلط ما تبقى من سوادها ببياضها، فتبدو كحقل مهمل تشابكت فيه الحشائش بفوضى، ولا يبقى من وجهه سوى عينين تكادان تتكلمان من شدة لمعانهما تحت حاجبين كثّين الى حد التحدي، فيبدو لمن لا يعرفه كالمعتوه، مع ان تاريخه مليء بالمغامرات والمفارقات... والمبارزات أيضاً! مع دعاة اليمين ومع مبشري اليسار وحتى مع اهل الدين جرأة لا تقبل المساومة واستقلالية تأبى الاحتواء. تمرد وايمان في آن واحد. قراءاته المفضلة من الانبياء وسفر الحكمة وكتاب ابن سيراخ ومنها استقى معظم الحكم والأقوال المأثورة التي يبثها بين الناس كالنبوات...

الى عبدالله سمعان هذا، الذي كان تركيبه مزيجاً من زمجرة الأنبياء ورؤية الفلاسفة وحس المجانين... كان كلام الله:

يخال لي، يقول الله، ان ابنائي مسيحيي العراق لن يكونوا كيانات متكاملة ومنتجة، بطوائفهم العريقة والمتعددة الأسماء والولاءات، إلا إذا كانوا واحداً، كما نحن، أنا وابني وروحنا القدوس، واحد.

لقد بدأوا يفهمون، يقول الله، ان جماعاتهم ستموت موتاً ما لم تتكاتف بمحبة، ما لم تقتبس من بعضها البعض، ما لم تمسك بالأرض باظافرها.

ثم بلغني، يقول الله، ان اساقفتي يكتفون بتصريف الأمور الأدارية والطقسية -كل في بيته ولربما من دون حماس- وكأن قناعاتهم لا تقودهم الى ابعد من ذلك. قلما يعلّمون او يكتبون او يتكلمون، مع ان لكنيستي كلمتها الحق في معضلات العالم الكبرى وفي القضايا التي تواجه مستقبل أولادي وحاضرهم في العراق. واذا قيل لهم ان الكلام من فضة (فقط)، فأنا الله أقول لهم ان السكوت ليس دوماً من ذهب... وإن زعم نفر منهم ان في السكوت السلامة. ولكن ليتكلموا جيداً وإن قليلاً!

في القاعدة من يشقون ثيابهم أسى لما آلت اليه بعض الأمور. انا لا أنكر ان هؤلاء يبالغون، ولكني أفهم ردة فعلهم. أليس من الأساقفة والبطاركة -ومن الكهنة ايضاً- من يخافون اعطاء الكلمة للعلمانيين؟ ولكن اولئك لن يستطيعوا عمل كل شيء بأنفسهم! اسمعوا بعضكم بعضاً يا اولادي الصغار.

لي أشياء كثيرة احدثكم فيها، يقول الله، كقضية التعليم المسيحي للصغار والكبار، وقضية اعداد كهنتكم -وهذه قضية خطيرة- وتعميق روحانيتهم وحماسهم وتضامنهم مع بعضهم، ومسألة تشكيل مجلس اساقفة في بلدكم، وممارسة كنيستكم دورها في حياة وبناء هذا البلد الذي أحبه، ومشكلة هبوط المحبة وتفاقم الخصومات بين الأسر والأزواج، وحتى ظاهرة هؤلاء الفتيات اللواتي يهجرن ايمان ابائهن على اطراف اصابعهن وراء مغامر مقامر!

هذه امور اعرف انكم لا تطيقون حملها دفعة واحدة، يقول الله، فأعهد الى روحي القدوس ان ينكركم بها وينيركم فيها.

٨ كيسنجر إسحب كلامك رجاء

في صحيفة انكليزية قادمة مباشرة من لندن، استرعت انتباهي صورة كاريكاتيرية لرجل يمسك سكيناً بيمناه وشوكة بيسراه، وهو متحفز للهجوم على صحن فيه نوع غريب من الطعام: هو عبارة عن جملة غير مفيدة مؤرخة في حزيران ١٩٧٤ ومذيّلة بتوقيع هنري كسنجر الذائع الصيت تقول: "بعد عشر سنوات لن يأوي طفل الى سريره وهو جائع!".

قيل هذا الكلام في نشوة مؤتمر عالمي للغذاء، ولعله قيل امام مأدبة حافلة بما لذ وطاب. ولكن دعوني اضحك! هل، ترى، ضمن هنري كسنجر "سريراً" لهؤلاء الأطفال الجائعين -ما دام يتكلم عن السرير- قبل ان يعدهم بالنستلة؟!

اقول ذلك وانا أنظر الى صورة أخرى في آخر عدد لعام ١٩٨٤ من صحيفة قادمة من باريس، تمثل طفلة عارية تماماً، بعمر "المميّة"، من الساحل الافريقي، ملقاة على الرمل، ولم يبقَ منها سوى جمجمة كبيرة وبطن منفوخة وخيال هيكل عظمي من الجوع والمرض. كما أقرأ في نشرة اعلامية اخرى ان ٥٠٠ مليون من الناس في العالم يهددهم الجوع، وان ٦ ملايين من عباد الله في اثيوبيا محكوم عليهم بالموت جوعاً -ولم يبقَ إلا التنفيذ-، وان في احدى قرى ارتيريا يموت ٨ اطفال على الأقل في اليوم الواحد من الجوع، والحبل على الجرار!

فَلْيسحبْ العم هنري كلامه، اذاً، او فليضعه في المجمدة الى حين الطلب! وإلا فليسمع ما يقوله زملاؤه خبراء الاقتصاد والسياسة، من الديمقراطيين والجمهوريين، ومن سكان جزر الواق واق؛ بأن العالم الغربي الذي ينتمي اليه يشكل ٣٠٪ من سكان الكرة الأرضية، ومع ذلك يأكل ٨٠٪ من مواردها، وبأن الشعوب الجائعة ستبقى ابداً جائعة ما دامت تقضي حياتها في ايفاء ديونها وفوائد ديونها المتأخرة والمتقدمة لمصارف الدول الشبعانة ولشراء السلاح للتذابح، والباقي يشتري به حكامُها "البسكت" لأطفالهم (!)... فلا شك، اذن، ان الاستعمار في هذه المرة ايضاً -يا للصدفة!- هو المسؤول عن الجوع في العالم!!!

وحده؟... فعلى ذكر "البسكت" والجوع في افريقيا تخيلت تلال البرغل، واكوام الدولمة، واكداس اللحوم، واشلاء القوازي، وانواع المعجنات والمسمنات التي فضلت عن مأدبة ما، في فوضى لا عقلانية والقيت في...! فماذا تراه يجري في سهرات رأس السنة وفي مآدب الزفاف والطهور والتناول الأول، وعلى شرف هذا او ذاك من الرجال -او النساء- العظام! وكان الله في عون المحسنين!

للعرض فقطا

٩

العنوان ليس لي، فقد سرقته من "لاهوتي ناشيء" ورد على لسانه عرضاً في محاضرة جادة جداً حول الله، وكان يصف الخطيئة بأنها "تظاهر" الانسان ازاء الله للمنافسة بما ليس هو، او بما ليس له، كآدم في خطيئته الأولى، او "استعراض" امام الناس للخدعة والتمويه...

وبينما استرسل اللاهوتي الشاب في تنظيراته شرد فكري انا الى هذه البضاعة التي تبهر عيونك او تسيل لعابك احياناً في المعارض الدولية او في بعض الأسواق المركزية واللامركزية، وعندما تتقدم لشرائها، بعد مشاورة جيبك وعقلك، تطالعك عبارة مشؤومة: "للعرض فقط"، او تقولها لك البائعة بتكشيرة، فتخرج صاغراً وقد اشتريت غير ما اردت، ولسان حالك يقول: "لا حول ولا قوة...".

ولكن ما لي وللمخازن. ألا ترى أن في مجتمعاتنا النامية -على وزن "الدول النامية"- نماذج من الناس يمكن ان تعلق عبارة "للعرض فقط" على صدورهم او جباههم -لا فرق- ولاسيما في الاستعراضات الكبرى التي يقيمونها في مناسباتهم الصغرى والكبرى -كالخطوبة والزفاف والتناول الأول وحتى في مراسيم الموت- حيث يتنافس زيد مع اخيه عمرو، وتتباهى بهية امام ضرتها صبرية؟!

من الناس من لا رصيد لهم سوى استعراض العضلات، ولهم من حب الظهور ما يدفعهم الى تقليد اوناسيس او صوفية لورين

وأميرة موناكو، وحتى بروسلي وعبوسي. ومن دعاة العصرنة المزيفة من تراهم يحشرون في بيوتهم مجموعات من التحافيات التي لا يجمع بينها جامع، او يقحمون في احاديثهم عبارات رنانة او أجنبية -واحياناً بلفظ يضحك المتنبي وشكسبير في قبريهما- للدلالة على مستواهم الاجتماعي الرفيع وسعة معلوماتهم. ناهيك عن بعض المثقفين الذين -لعلة ولغير علة- يودون ان يعلم الجميع كم لغة يتقنون، وكم شهادة يقتنون، وفي أية جامعة درسوا...! واخرون يشبهون صديقي هذا المتقاعد الذي ما أن تقول له كلمة استحسان حتى يفتح امامك ملف بطولاته وصولاته، وكم ذئباً قتل في الشمال، وكم روحاً أزهق في حرب فلسطين، ومع أي وزير لعب "طاولي"... وعندما تحتاج زوجته الى ثوم او بصل يتركها تذهب لشرائه بنفسها من السوق...

إن من يعتني بالمظاهر والقشور وتزيين الواجهات دون الجوهر -والجوهر شخصية الانسان وقيمته الداخلية الأصيلة- هو كهذه البالونات الملونة التي يلهو بها الصغار، وما أن يزداد هواؤها حتى تنفقع! مو تمام؟!...

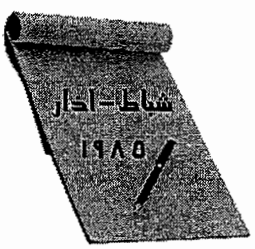

١٠ محروسة يا عروسة

وجدتُني في مجلس شيوخ متقاعدين ذات مرة، راح كل منهم ينبش في ذكرياته عن قصة او طرفة يؤنس بها الجلسة. وانبرى "اصغرهم" سناً يحكي عن احد اساتذته القدامى -وكان ذكياً الى حد الغرابة- كيف انه لحق مرة بعربة خيل في احد شوارع الموصل وراح يحل معادلة حسابية على قفاها الأسود، ظاناً انه سبورة الصف! والهمتني القصة ان ألاحق سيارات هذا الزمان وريثة تلك العربات، لا لأجل مسائل حسابية على قفاها، وانما لأقرأ عليه نماذج طريفة من الفلسفة الشعبية المتجولة، كُتِبَتْ شعراً ونثراً، وبالخطوط الرقعية والديوانية والكوفية والفارسية وحتى الفرنجية، واليك عينّات من هذه النماذج:

القسط الأوفر من هذه الكتابات ديني الصبغة، منه ما يلتمس ستر الرحمن، مثل: يا ساتر يا رب - راجعة بأذن الله - هذا من فضل ربي - الله معك - ما شاء الله. واكثرها رقة البيت التالي: يا سائرة في أرض مولاكِ، سيري وعين الله ترعاكِ. وبعضها يستنجد بالأولياء، مثل: دخيل النبي - محبوبة الامام علي - محروسة سيد مالك.

وهناك ما استُقي من فلسفة الحياة مثل: الصبر طيب وان كان مراً -الحياة دمعة وابتسامة- اذا ابتسمت لك الحياة فلا تنسَ مُرَّها - انظر بعينيك وارحم بقلبك.

وهناك ما أخذ من الأغاني الشائعة او الأفلام مثل: أريدك، لسعدون جابر. او عزاز، لياس خضر - امل حياتي، او يا ظالمني، للمرحومة السيدة ام كلثوم - يكفي عذاب للصبر حدود، واظنها للمرحومة ذاتها - الحقيقة حيرتوني، ولعلها لمن غنت "اشتروني اشتروني" - رحمة، لربما تيمناً ببطلة مسلسل "رحمة" المصري...

اما ما هو أكثر طرافة وخفة دم فهو ما يغازل به السائق سيارته، وكأنها حبيبته، مثل: يا نوسة، محروسة يا عروسة - تسواهن - محبوبة زيرك او عدي او سلمان - سبع الدجيل - قاهرة الجبال والصحارى - انا بلبل اغني المارسيدس. او يخاطب به من يعاكسه مثل: اتركني انا مخطوبة - عين الحسود فيها عود - حَسيبَكْ للزمن - نرفزتني يا حلو - لا تسرع يا بابا نحن بانتظارك. او كما جاء في مؤخرة هذه الشاحنة الأجنبية بالانكليزية: *Don't Kiss My Back* وأترك الترجمة للعارفين!...

ولكني أفهم لماذا منعت شرطة المرور الكتابة على السيارات -وهي تكثر على السيارات الشعبية والشاحنات- لئلا تعيق رؤية السائق. ترى هل من حل آخر لاحترام رغبة الشوفير في تسجيل فلسفته على سيارته والمحافظة على هذا الجانب من "التراث"؟!

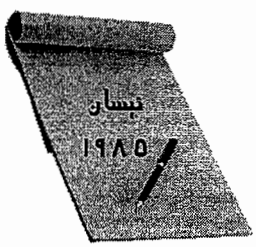

١١ إيمان الفقراء

أومن بالله الواحد الأحد القهار الذي وضع كل هذه الرقة والعذوبة والجمال في عيون الأطفال.

أومن بالأنبياء الذين ينادون بالأبيض أبيض، وبالأسودِ أسودَ، اكثر من إيماني بشعراء السلاطين ومدّاحي الملوك.

أومن بعزرائيل اذا ما قبض على روح فلان وأسرى بها حيث يشاء، فتستريح الشعوب، ونستريح نحن من كيد الدجالين.

أومن بالنحلة التي تكدّ من الفجر الى الفجر، وتسافر من وردة الى وردة طوال النهار، بحثاً عن الرحيق، لتصنع عسلاً سيأكله غيرها.

أومن بأمة عربية واحدة ذات كلمة واضحة.

أومن بأن دم الشهداء بذار الحياة، وبأن تراب الوطن مع الكرامة أعزّ من دولارات الدنيا بغير كرامة.

أومن بصعلوك حكيم قانع بأمرأته وأطفاله، أكثر من إيماني بغني احمق يهدم مخازنه ليبنيها أوسع، ويهجر امرأته او يجافيها في سبيل أخرى اكثر دلعاً منها.

أومن بداود الملك باكياً على مصرع ابنه الثائر عليه، اكثر من ايماني بالأخ معمر، بطل الساحة والميدان وقاهر الجماهير والجماهيرية، الذي يطارد معارضيه ويفتك بهم في كل مكان، ويقطع

يد السارق اليمنى ورجله اليسرى بعد تخديرهما لئلا يشعر بالألم، ويلعن كل من لا يؤمن بكتابه الأخضر، واشياء كثيرة أخرى يعملها...

أومن بكنيسة واحدة جامعة خاطئة رسولة، متواضعة كأم، وشجاعة كيسوع، أكثر من إيماني بطوائف كثيرة متبعثرة، مكتفية بذاتها وبعقلها، خائفة وملتفّة حول نفسها كالحلزون.

أومن بشعب يحب الزهور حبه للحياة، ويحترم المصلحة العامة احترامه لمصلحته الخاصة، ويتكلم لسانه من فضلة ما في قلبه، امام ربه وامام عظمائه، ويتهافت على العمل والانجاز تهافته على الطعام والشراب.

أومن بكأس ماء بارد يقدم صيفاً لإنسان عطشان بعد سفر، وبكلمة طيبة تقال بمحبة لانسان طفران، وبمسعى حميد لإعادة المياه الى مجاريها بين الرجل وامرأته بعد شجار او تنافر.

أومن برقصة "الكَفْكيخْ" و"الدوشكْ العالية" تؤديها امرأة عجوز يوم زفاف آخر ابنائها، وبأغنية قديمة تثير ذكريات رجل ختيار وتعيد عنفوان شبابه اليه.

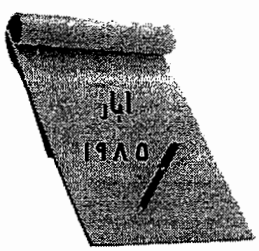

١٢ كيف تبني تعاستك بيدك

على غرار كتاب "كيف تكسب الاصدقاء" للأمريكي ديل كارنيجي، نشر مؤخراً احد العلماء الألمان كتاباً بعنوان "كيف تبني تعاستك بيدك"، وكأنه يقول: "كيف تهدم بيتك بنفسك". وفي الكتاب قواعد عملية وتمارين تطبيقية اظهرت فعاليتها في جلب التعاسة من دون معلم. وتعميماً للفائدة اليك ست من تلك القواعد، وأخرى على عَجَلٍ:

القاعدة الأولى: اعتبر نفسك أحسن الكلِ، وأصوبهم رأياً، وأعمقهم ذكاءً، وأوسعهم خبرة، وأغزرهم علماً، ولا ترضَ إلا بعقلك. عارض على طول الخط وارفض أي شيء بمجرد ان يقترحه عليك غيرك.

القاعدة الثانية: داوم على اجترار الماضي، بذلك تضمن عدم التفكير بالحاضر الذي قد يلزمك بسرعة ٩٠ درجة في الاستدارة! إعتبر الماضي فردوسك المفقود، والحاضر سبب اختفاء الموز وشحة البطيخ والعَرَق في السوق وكل البلاوي.

القاعدة الثالثة: إبحث عن ضالّتك في غير محلها كهذا السكران الذي أضاع مفتاحه ليلاً، فراح يبحث عنه تحت مصباح الشارع، لأن الموضع الذي فقده فيه معتم: بهذا ضمن انه لن يجده

ابداً. او قلّد أدوار الأخرين وتقمص حركاتهم واساليبهم: بهذا تضمن انك لن تلعب دورك ابداً.

القاعدة الرابعة: أُحشر انفك في كل قضية تعنيك او لا تعنيك، كعبدالله افندي (عجيب امور غريب قضيّت). او كهذا الأمريكي الذي حكمت عليه المكسيك بعشرين سنة سجن لقتله قنصلاً في سنة ٧٥، وفي سنة ٦٢ كان قد قضى سنتين لاختطافه طائرة الى كوبا، وفي سنة ٧٠ أسره الفدائيون في عمان، وفي ٧٣ وجد بين أسرى الحرب في فييتنام. المسكين اصبعه تأتي دوماً تحت المطرقة!

القاعدة الخامسة: فكّر بأن المصائب لا تقع إلا على رأسك، والبامية المالحة لا تستقر إلا في صحنك، والضوء الأحمر يظهر امام سيارتك اكثر من الأخضر، وعندما يتكلم اثنان بصوت خافت لا بدَّ انهما يتكلمان ضدك.

القاعدة السادسة: قل رأيك صريحاً في محدثك او محدثتك: شخيركَ مزعج اذا كان مزعجاً، وأحمر شفاهِكِ قبيح اذا كان قبيحاً. ولزوجتك قل: أحبكِ انتِ، ولا أحب الثوم الذي أعددتهِ!

ملحق: اذا لم يكفك ذلك كله فانصب تلفوناً في دارك، فهو إما يرنّ باستمرار و١٠/٩ من المرات لا يكون لك، او يستدعيك في الوقت غير المناسب؛ وإما يبقى أخرس، واذا انفتحت شهيته فعلى تشابك الأصوات والمسبّات او على البدالة ليسمعك أغاني ام كلثوم.

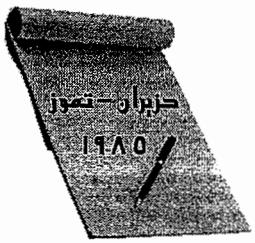

١٣ ابن بطوطه وأسفاره [٢]

وشددنا الرحال، بعد استطالة منزل، الى بلاد الأندلس وأرض العرب في افريقيا، لعلنا فيها نفرّج عن كربٍ، مستذكرين قول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

تغرَّبْ عن الأوطان في طلبِ العلى ... وسافرْ ففي الأسفار خمسُ فوائد
تفرُّجُ همٍّ واكتسابُ معيشةٍ ... وعلمٌ وآداب وصُحبة ماجدِ

ودخلنا اسبانيا من مضايق جبال البرّانسِ على متن قطار بخاري هزاز ينهق من شدة العياء الى ان بلغنا سرقسطة ليلاً. ومنها هبطنا الى العاصمة مدريد، وكان يوم أحد. ولهم فيه عادة يتجمعون عشيةً زرافات زرافات على مدارج مدورة حول حلبة يتقابل فيها رجال فوارس وراجلون مع ثيران هائجة. وساقنا الفضول. وجرى الثور خبباً سريعاً فقابله رجل بملاءة حمراء أهاجته. فهجم كالأسد الهصور على فارس فَرَفَعَهُ وفرسَه بقرنيه وارداهما أرضاً، فأسرع اليه احدهم بملاءته واستدرجه حتى استلمه الاول، وفي غفلة منه غرز نصلين في كتفيه ثم اخرين حتى أدماه وأعياه. وما هي إلا برهة حتى كبا الثور مضرجاً. ونزلنا بطليطلة وغرناطة واشبيليا وفيها من بقايا العرب شيء على ملامح المِلاحِ وفي القصور والأبواب والقلاع. وفي جامع قرطبة صلينا ركعتين. ثم ركبنا البحر الى بلاد المغرب، فألفيناها بلطف اهاليها وعلّو لغطهم وبطء حركتهم وتزاحم اطفالهم على

الغريب وكأنها ديارنا. وزرنا مرقد سيدنا محمد والد السلطان. وخرجنا يوم جمعة في فاس الى جامع القرويين فجلسنا القرفصاء مع الشيوخ نتجاذب اطراف الحديث عن الأولياء الصالحين. وعبرنا الحدود بين مملكة مراكش وارض الجزائر سيراً على الأقدام لغلق الذهاب والإياب بينهما لخلاف واقع لهما. وفيما كنا بقصبة الجزائر، وهي جبل نازل في البحر، حل بنا عطش لشدة الحر، فدخلنا حانةً نستعطف صاحبها، فسألنا ان لم نكن صائمين، وكنا في رمضان، فقلنا كلا اننا اليوم لسنا مسلمين ولا نصارى ولا يهوداً، اننا عطاشى. فضحك منا ورحم بنا. وانتقلنا الى تونس ومكثنا فيها أربعةً. وقصدنا سوق خضارها لحاجة ما، فإذا النساء في عباءات بيضاء طويلة حتى الاخمصين، محجبات ببراقع فوق الرأس حتى الحاجبين، وخمار ينزل من فوق الأنفق فيغطي الرقبة والأذنين، فلا ترى منهن سوى العينين. ومن هناك امتطينا صهوة الطائر الميمون فحط بنا على سواحل ليبيا. ولما لم يكن لنا بها حاجة لم نغادر مجلسنا، فصعد الينا قوم ذاهبون الى مناسك الحج. وفيما اهتز الطائر ليحلّق، طافوا علينا بكتاب اخضر قيل ان نبياً لهم قذف به من قعر عبقريته يرشد الانسانية الى درب ثالث، فدعوا صاحبه بالقذافي.

والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته

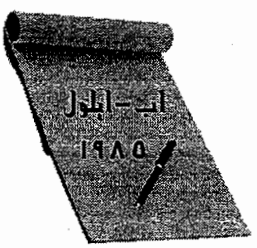

١٤ نحن بخير والحمد لله!

عندما يصرّ شباب من العراق على منازلة خصومهم في ساحة الكرة في الرياض وينتزعون منهم كأس السبق وصولاً الى المكسيك كما ينتزع الأسد فريسته من كاسر...

عندما أرى شباباً وصبايا من قرانا يتألبون بأزيائهم التقليدية الفضفاضة في نمرود ليرقصوا لشعراء المربد. وعندما اراهم يتبخترون على سفوح جبالنا ويرسلون ضحكاتهم الصافية بوجه الشمس في يوم عيد او مهرجان او رحلة مدرسية...

عندما تقتطع فتيات بعمر الزهور من اوقات راحتهن نهاراً بأكمله في خلوة دير تخاله كالطود الأشم في ذراه، للصلاة والتأمل في كلمات الانجيل...

عندما يتنادى شباب وفتيات -وبينهم جامعيون وخريجون وحملة شهادات عالية- لاعطاء التثقيف المسيحي للناشئة في الكنائس في يوم إجازتهم الاسبوعية. او عندما يتجمعون جنباً الى جنب مع كهول وشيوخ وقورين لمتابعة دراسات لاهوتية وكتابية وكنسية معمقة...

عندما يأتيني شاب موهوب، تنفتح الدنيا بوجهه عنفواناً وحباً ونجاحاً، ويتموج صوته كالموسيقى التي يعشقها ليقول لي: اودعناكم في أمان الله، لقد تركت الجامعة وانا ذاهب الى المعهد لأستعد للكهنوت...

عندما أراهم في صفاء نياتهم يرفضون على الكبار ان يدخلوهم في عوالم حساباتهم المصلحية وأحقادهم العشائرية ومتاهات أنانياتهم، كما في "الشهد والدموع" ومع ستّ دَولتْ وشركاها...

الكبار يدّعون ان خبرتهم الأطول وحنكتهم في الحياة تجعلهم يخافون عليهم. والحال أنهم يخافون منهم... لأنهم بتساؤلاتهم واحتجاجاتهم يزعزعون ما بنى عليه جيل الكبار، ويلوّحون ببناء منطق جديد للعلاقات، ويضعون علامات تعجب واستفهام امام كثير مما يقوله الكبار ولا يفعلونه...

عندما أرى وأسمع كل ذلك وغيره عن الشباب... يتملكني الزهو والاحترام، ويندفع في أنيّ صوت ينادي:

لا تخافوا علينا. نحن بخير والحمد لله! شيء واحد يعوزنا: أعدّوا لنا عالماً فيه من الحب قدر أوفى، ومن السلام اكثر مما فيه، ومن العصبية القومية والدينية والعرقية والحضارية وبين الأجيال والأجناس أقل مما يهزه الآن، واستمعوا الينا عندما نتحدث، فلعلنا نحمل شيئاً يفيدكم!

١٥ حوار صحفي مع عبقري ناشئ

بعد الجهد الجهيد والكرّ والفرّ والقبول والاعتذار نجحتُ أخيراً في إجراء هذا السبق الصحفي مع عبقري ناشئ واقتطاع عشر دقائق فقط لا غيرها من وقته الثمين. هكذا على عجل وعلى هامش مؤتمر ما، في كافتيريا ما، وامام كأسٍ من عصير ما. وتشعب بنا الحديث الى هؤلاء الأدباء المتأدبين والشعراء الشعارير والمغنين "المغنواتين"، حسب تعبير إخواننا المصريين، والناشئين الذين لهم رأي في كل شيء.

قلت: ... وما رأيك بشعر بدر شاكر السياب؟

قال: بدر، شعره كعويل بكرٍ تحمل في احشائها ألَقَ صباحات الموت. لونُ احساسه المحروم يغتال كل مساحات كلماته الجامحة.

قلت: والبياتي؟

قال: البياتي... مصيبة، ولكن على رؤوس الغرباء.

قلت: الشعر الحديث والقديم... العمودي والأفقي... هل من علاقة؟

قال: كعلاقة الشرق بالغرب والشمال بالجنوب في لغة السياسيين.

قلت متنهداً: واحمد شوقي؟

قال متلكئاً: لم اسمع به من قبل... لعله من هؤلاء الصغار الناشئين الذين يكتبون على كل سطر كلمة فيعتبرونها قصيدة!

قلت مُغيّراً الحديث: ماذا تقول بغناء ام كلثوم وعبد الوهاب وسميرة سعيد وحسنية خاتون؟

قال: ام كلثوم؟ جيد. عبد الوهاب؟ لا بأس. سميرة؟ ... وجه مقبول وشفاه في مدّ وجزر دائم، وعينان... دعني منهما. اما حسنية خاتون فعلى رأسي!

قلت: اين تضع الأغنية العراقية المعاصرة؟

قال: على الرفوف العالية... للأيام العجاف.

قلت: ما هي احاسيسك أمام انفجار مركبة شالنجر الأميركية؟

قال: ما طار طائر وارتفع إلا كما طار وقع.

قلت: ما هي مشاريعك المستقبلية؟

قال: قصيدة بألف بيت للمربد السابع، و ٤ كتب قيد الاعداد، و ٥ رهن التفكير، وبحث عن الفن التكعيبي في شعر المتنبي، ورحلة الى جزيرة بغداد.

قلت: بماذا تنصحني كي أجمع ثروة بسرعة؟

قال: افتح لك محلاً تجارياً لبيع لوازم النساء، او مطعماً شعبياً يقدم الدجاج بالتنور او التشريب على الطاقة الشمسية، او اشتغل مدرساً خصوصياً بعد الدوام... والاسعار غير محدودة والرزق على الله!

وهممت بتوجيه السؤال التقليدي الأخير حول انطباعاته عن بغداد ونحن نخوض حرباً ضروس ضد عدو جاهل، ولكني احجمت لرتابة الجواب التقليدي ايضاً فختمت المقابلة بسؤال ديني:

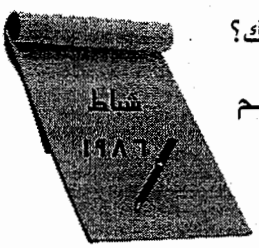

قلت: ما أبغضُ الحلال عند الفقراء برأيك؟

قال: ثلاثة: الراشي والسمك ولحم الفقراء، أي الكمأة!

١٦ اولف... النخلة!

هوت نخلة السويد، اولف بالمه (و"بالمه" السويدية معناها نخلة) برصاصات مجهول متطرف، بينما كان عائداً الى بيته من السينما برفقة زوجته، قبيل منتصف الليل، من دون حراسة ولا مرافقين، كأي مواطن عادي...

اولف بالمه ليس ابن عمي، ولا صديقي في العاب الصبا، ولم نشرب القهوة سوية في يوم من الأيام... عندما أتانا أول الحرب وسمعنا به رسول سلام ومكوك وفاق قدّرت فيه الانسان الشهم الذي يمدّ يد العون الى أخوته في محنتهم كي يساعدهم ليعيشوا بسلام وتفاهم عوض ان يتضاربوا بالصحون والطاولات، وأن يتراشقوا بالورود عوض ان يتراشقوا بالراجمات.

قد يكون في الأمر ما يدعوه أرباب الأدب والنقد بالرومانسية، أي الحلم الممزوج بالمثالية. لربما. ولكن أليس الحلم والمثالية أول ما يقتات به الطموح... وأنا أطمح الى عالم يتعامل فيه الناس كأخوة او كفريق رياضي، لا كذئاب، ويجدوا طريقة اخرى للتعبير عن مواقفهم او رفضهم غير التصفيات الجسدية والاغتيال...

مقتل بالمه رجل السلام اعاد الى ذهني كيف هوى غدراً على عتبة عيادته، برصاصة متنكر انتزع قلبه من صدره، ذلك الطبيب الطيب الذي طالما أدخل العزاء والفرح الى قلوب أمهات وزوجات. وتكررت المأساة يوم سقط برصاصة متهور أرعن ذلك الكاهن الشاب

الضحوك، بينما كان خارجاً لتوه من كلام المحبة والغفران في مراسيم الجمعة الحزينة.

لقد رفضت هذا العنف دوماً بكل كياني... وشجبت كل اغتيال للحرية، كل اغتيال للفكر، كل اغتيال للأمل في قلب الإنسان، هذا المسكين الذي خرج من يد الله، لا ليعيش مهدداً او ليموت بهذه التفاهة...

أتُراني كذلك لأن أنني لم تسمعا سوى الناصري ذلك المسالم الذي آثر ان يموت مظلوماً على ان يحيا ظالماً؟!

أم لأني ربما تتلمذت لغاندي في حياة سابقة لا علم لي بها؟!

أم لأن في عروقي دم اللاعنف أخذته عن أب جسدّ لي الطيبة، وما وجهني سوى الى الخير، ولم أره قط حاقداً؟!

زاوية الرصيف التي سقط فيها بالمه استحالت حزماً حزماً من الزهور لتقول: المحبة أقوى، المحبة أقوى!

وجوزيف جمع أصدقاءه ومحبيه وأطفاله الثلاثة ليقول لهم: لا، لن يطفئوا النور، وستبقى راية الخير هي الأعلى!

وعلى قبر يوحنا نبت غصن زيتون: طوبى لفاعلي السلام...

وسأبقى أنا أؤيد يسوع لما أعاد سيف بطرس المرتجف الى غمده...

١٧ عادل صباغ الأحذية

الزمان: خريف ١٩٧٩.

المكان: حمص (سوريا)

... ولقتل الوقت وامتصاص الضجر كنت، كل يوم عصراً، اشتري جريدة اليوم بحركة آلية من الكشك الخشبي نفسه، ثم اجلس بالطريقة ذاتها على كرسي حديدي صدئ في زاوية مقهى شعبي على الرصيف، واطلب قدح شاي كمبرر لجلوسي، وأشرع في قراءتي... وأتباطأ في طقوس شربي ما استطعت الى ذلك سبيلاً حتى أقضي على العناوين العالمية الكبرى، وأحفظ على ظهر قلبي ألقاب الزعيم الملهم وأقواله المضيئة، وألقي بنفسي في الانجازات القطرية، الأولى دوماً من نوعها في كل منطقة الشرق الأوسط، لأستقر في الكلمات المتقاطعة. وبين الفينة والفينة أعبر الشارع بعينيّ لأراقب الأطفال يمرحون في حديقة قرعاء صغيرة في الطرف الآخر. وبجوار الحديقة دائرة رسمية انتصبت امامها ساعة كبيرة واقفة ابداً على الثالثة والربع، وقد غطت جُذْعَ الساعة لافتاتٌ نضالية قديمة وشعارات تَهرّأ قماشُها ولا احد يجسر على ان يجلي الساعة عنها...

وانتشلني من شرودي صوت ناعم... صبي في العاشرة تتدلى من كتفه عُدّة الصبغ... وفي نظراته إغراء... مددت رجلي، وانا طالما امتنعت من حيث المبدأ عن مدّ حذائي لغيري والجلوس او الوقوف فوق رأسه:

😐	☺
- ما اسمك؟	- عادل
- في أي صف انت؟	- لا أذهب الى المدرسة
- لماذا؟	- لا اريد ان احبس نفسي. احب حريتي
- وهل المدرسة تربط حريتك؟	- لا أدرس. الدرس لا يعجبني، وكفى!
- كم لك من الأخوة؟	- ثلاثة اخوة واختان.
- امك؟	- تشتغل في البيت.
- وابوك؟	- مريض...

واخبرني انه يشتغل منذ ٣ سنوات ويحصل على ١٥ ليرة في النهار... ثم ابتسم وحكى لي كيف دعا زميلاً له للذهاب الى باب الجامع يوم الجمعة وصبغ احذية المصلين، فأجابه ذلك الزميل بمسبة كبرى، فتركه ومضى وحده وصبغ ٣٠ زوجاً بـ ٢٥ ليرة، وكانت جاهزة مصطفة عندما خرج المصلّون.

- وكيف كانت وجوه المصلين، مرتاحة ام منزعجة مما فعلت؟

- الصباغ لا ينظر الى الوجوه، بل الى الاحذية!

كاد الظلام يلتحم بأديم الأرض عندما غادرت المقهى وأنا افكر في فلسفة عادل حول الحرية ونظريته في لا علاقة الوجوه بالاحذية... وفي اضطرار ملايين الكادحين من امثال عادل على العمل من اجل لقمة العيش في ظروف يفقد فيها الانسان حتى الابتسامة والكرامة والعاطفة والتفكير...

١٨ ورطة غريبة

كتبت لي احداهن -ولنسمها "سناء"- وقعت في ورطة بسببي، وجاءت تطلب رأيي في رسالة مستعجلة تقول فيها:

"الى ابو فادي مع التحية،

وبعد... في بداية العام الدراسي ذهبت انا وزميلاتي الى المكتبة فلمحت كتاب "همسات أبو فادي"، فاشتريته. وفي اليوم التالي تحدثت عنه مع زميلتي فطلبت إليّ استعارته، فأعرتها اياه وأعادته لي في اليوم الثاني... فاستعارته زميلة أخرى... وهكذا كل يوم تستعيره احدى الزميلات حتى نهاية العام. وهنا استعارته زميلة اخرى ولم تعده حتى يوم النتائج. ويوم استلام النتائج استعارته زميلة جديدة وقالت لي: سأعيده في حفلة التخرج.

فما رأيك يا أبو فادي؟".

- أيتها الأخت "سناء" من حقّك عليّ، قبل كل شيء، أن تعلمي بأن نوبة من الضحك المتقطع انتابتني وأنا أقرأ رسالتك الظريفة. أما أن تطلبي رأيي في قضيتك -وقد أسفت لحالك- فأظن انك لم تختاري الشخص المناسب، لأن رأيي الصريح هو ان تشتري نسخة من الكتاب وتهديه لكل واحدة من زميلاتك، وتكفي شرهن!... او على الأقل ان تقنعي كل صديقة معجبة بأبي فادي أن تشتري همساته... وكان الله مع الصابرين!

ولكن زميلاتك -أطال الله بأعمارهن- قد ذكرنني بقول للفيلسوف الأرلندي الساخر برنارد شو حول استعارة الكتب، قال: "ساذج من أعار كتاباً، وأكثر سذاجة من أعاده"!... لاشك ان برنارد شو هذا كان يجهل كل شيء عن كرم العرب... وعن كرم جداتنا اللواتي كن يعرن لجاراتهن كل شيء... من خبز التنور الى البصل، ومن رأس الكيل الى السماق والفلفل...

أو لعل زميلاتك فعلن ما فعلن اقتصاداً في النفقات، لا غير. وبذلك يشبهن هؤلاء الاسكتلنديين الذين يشترون جريدة فيقرأها الواحد من الوجه والأخر من الظهر في آن واحد... وبسعر جريدة واحدة!

ما رأيك...؟

ودمت، أيتها الصديقة... لا أراك الله مكروهاً!

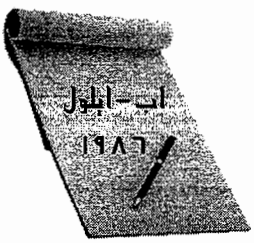

١٩ أشباح المدينة

ضاقت به قريته بأزقتها الملتوية الموحلة، ونسائها اللواتي لا لون لهن ولا جانبية، وشيوخها الذين يقتلون النهار مستلقين بكسل في المفترقات والساحات المشمسة شتاء، يتحادثون ويتثاءبون، فلا يعودون الى بيوتهم الا للقمة الطعام وللمبيت. اما البطرانون امثاله فيتنقلون بجاكيتاتهم الهادلة على اكتافهم من مقهى الى مقهى - وقريته محاطة ببضعة منها، وظيفتها امتصاص الضجر والفراغ وما تبقى في قعر الجيوب.

وفي صحوة وجدانية بين قدحي شاي من هذا الذي يشربه عند العم حنتوش ابتسمت له صورة جاره ابو سليمان المغترب القادم من بغداد... فقرر ان يهاجر هو ايضاً ويجرب حظه في مدينة الاحلام.

ابو سليمان طائر قادم من بلاد الجنة... هذا يصافحه بحرارة واعجاب مستفسراً عن احواله بعد طول غياب، وتلك تبتسم له وتسأله عن جارة او قريبة لها في العاصمة، وذلك يحجزه لطعام العشاء، وهو يتبختر كالطاووس بعقاله المترنح في زاوية رأسه فوق كوفية ناصعة البياض وسرواله المترهل الوامض من خلال فتحة "زبونه" الامامية بتحدّ...

وكان ابو سليمان ضيف صاحبنا ذلك المساء -وقد نوى ان يفاتحه بمشروعه- فأعدت امه نوعين من الطعام الى جانب الدولمة، واستعانت بجارتها لتحضير الكبة، واخرجت صحني الفرفوري اللذين

تحتفظ بهما في صندوق ثيابها للضيوف الكبار. اما هو فاهتم بلوازم الشرب... وامتلأت الكؤوس... وفرغت الكؤوس... عدة مرات، وابو سليمان... المسكين، لا يعرف طقوس الشرب، ولكن من العيب ان يقول ذلك... فيشرب... ويشرب... ويسكر... فيطيح بعقاله وكوفيته بعيداً، ويسترسل متفاخراً بمواقفه وشانه في العاصمة... ويثقل لسانه... ويتلوث سرواله برذاذ الطعام والشراب... وتضيق به الذكريات فجأة فيجهش في البكاء...

وتنتهي اجازة ابو سليمان ومعها الولائم والتكريمات ليعود الى رطوبة حي المربعة، يدفع متثاقلاً عربة الكبة التي تحيي زوجته الليل في اعدادها للزبائن. وبعد الظهر تتحول عربة ابو سليمان النَمِسَة المتفككة دكاناً متجولاً للكرزات والحلاوة واشياء اخرى، يحيط بها الاطفال احاطة الذباب بعنقود تمر بائس... اما السهرة فيصرفها مع الطاولي او الدومينو على "قنفة" مجمّعة الاجزاء في مقهى الحي اللزج حيث يلتقي الكادحون والطفرانون من بني قومه...

٢٠ رد اعتبار اليهم

في يوم من الأيام أعطيت صوتي للحمير المظلومين وأقمت نفسي محامياً -من دون تفويض من أحد، وإنما شهامة مني- وناطقاً باسمهم لدى رب العالمين، وتلوتُ صلاة نابعة بالإيمان دفاعاً عن حقهم في الحياة والكرامة ووضعتها على لسان احدهم. غير ان ذلك أستثار قارئاً من بني جنسي: كيف أدنس الصلاة وأضعها على شفتي حمار! -وما هذا كان قصدي، صدقوني- فاقتطعُ صلاتي وأرسلها إليّ غاضباً مع هذه التحية: تعاد الى الحمار الذي كتبها، مع الشكر!

مساكين هؤلاء الحمير!... مظلومين، مظلومين... يا ناس! واذا ما عدت اليهم اليوم، فليس لأغضاب أحد، وإنما لرد الاعتبار والجميل اليهم. ففي نكرياتي مواقف كثيرة من سلوكيتهم اعطتني دروساً وعبراً، منها إيجابية ومنها سلبية، ككل العبر والدروس. ولطالما أفادتني فلسفتهم في الحياة. أما ان يكون للحمير فلسفة، أفلم يخصص الكاتب العربي الكبير توفيق الحكيم احد كتبه لـ "فلسفة حمار"؟!

في لسان العرب صفات التصقت ببعض الكائنات لما تعكسه من جوهر طبائعهم. فقالوا كالكلب وفاءً، وكالحصان قوة، وكالرياح تقلباً، وتحدثوا عن رشاقة الغزال، وخفة الأرنب، وحيلة الثعلب، وحقد الفيل، وعناد الفرس، ونعتوا القطة بالسرقة، والدجاجة بالبلاهة، والفارة باللعوب... اما الحمار فيشار اليه بالأمانة، وبالكد، فقيل عن

شخص كدود مثابر بأنه "حمار الشغل"، وبالصبر حتى استحق -وبكل جدارة- لقب "أبو صابر"، والصبر مفتاح الفرج... الى ذلك كله تضاف جملة من المحاسن أختصت في بحثها مجلة عربية تقدمية صدرت مؤخراً في انكلترا حول الحمير... وتنادي بسقوط الاستعمار وتحرير فلسطين.

أما عن أمانة الحمير فلا زلت أنكر كيف كانت حمارتنا البيضاء، بعد بيعها، تتوقف أمام دارنا وتهم بالدخول وهي تحمحم حنيناً كلما مرت من امام الباب، فيردعها صاحبها الجديد. اما عن ذكائها -مهما قالوا عن قلة ذكاء الحمير- فأنكر ان والدي كان يوكل أمري اليها حين لا اعرف طريق الحقل، فتقودني اليه هي من تلقاء نفسها. واما عن الرفق بالانسان فالبشر مدينون للحمير بالكثير. تشهد على ذلك كل هذه الخدمات المجانية التي يقدمونها للفقراء والكادحين -وهم اول الكادحين - بطيبة خاطر ونكران ذات... من نقل امتعتهم ومحاصيلهم، وحملهم في تنقلاتهم، وجرّ عرباتهم، الى السير في اول قوافلهم... ولم يُسمَعْ قط ان حماراً اكل حماراً، او حرق داره، او قاد غزواً ضده، او وشى به لدى السلطان. بل عُرِفَ عنهم التعاون دوماً: ألم تلاحظ كيف يحك الواحد ظهر أخيه برفق وعناية! أحد أصدقائي الظرفاء جعل منها فلسفته في التعامل مع أخوانه: حكّ ظهري دأحكّ ظهرك!

شيء واحد يزلّ به الحمار، وهو وصوله في ثقته بالانسان الى حد السذاجة، فيتوهم ان العدالة والمساواة اذا قالها سيده حققها... كما حدث لذلك الحمار الذي رأى سيده يداعب كلبه، فينبطح ارضاً فيثب الكلب على صدره بقوائمه ويعضعضه، والرجل منشرح يتضاحك. فيقول الحمار في نفسه ماذا لو عبرت عن عاطفتي انا ايضاً لسيدي هكذا... فيهمهم وتأخذه النشوة فيهوي على سيده حانياً حذو الكلب... ولكن سيده قابله بالعصا غاضباً وانهال عليه ضرباً مبرحاً!

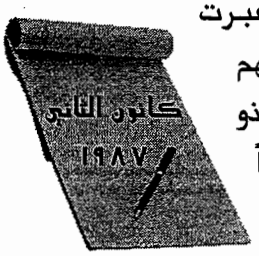

٢١ رسالة الى ما وراء البحار

... وتسألينني عن الحرية!

الحرية، عزيزتي، نعمة كبرى. والاحساس بها وعيشها بمسؤولية ونضج نشوة من نشوات الحياة، من حق الانسان ان يتنوقها. لأن الله جل جلاله خلقه لا لكي يبقى قاصراً ابد الدهر، لا يستطيع ان يتخذ قراراً بنفسه ولنفسه من دون العودة الى مرجع أعلى، أو ان يقدم تقريراً على ما فعل لكل عابر سبيل. والحرية الحقة ليست ان يفعل المرء ما شاء ومتى شاء وكيفما شاء وعلى حساب غيره او حساب مبادئه. الحرية موقف داخلي، قبل كل شيء، موقف يجعلنا نرفض الانقياد والتبعية ومركّبات النقص لتسلّم ذواتنا ومسؤولية انفسنا وقراراتنا بيدنا، على ضوء الضمير والقناعات. هكذا، الحرية لا أفهمها من دون الالتزام.

من ثمار الحرية ايضاً ان نعبّر عن ذواتنا ومشاعرنا وافكارنا ومواقفنا بعفوية وبساطة وأصالة، من دون تكلف او تغليف او تعقيد او مداورة او خوف. ولكن هذا لا يعني ان الجميع سيفهموننا بالشفافية التي بها نفهم انفسنا. لذا من الواجب واللازم "تقدير" الظروف و"التمييز" بين الاشخاص لنعرف كمْ مِن ابوابِ ذواتنا او نوافذها باستطاعتنا ان نفتح. ومِن الحكمة ان ننتقي الكلمات للاقناع، كانسان ناضج واثق من نفسه، لا يحتاج اللجوء الى كلمات صارخة لتغطية عجزه او خوفه او تردده، لأن عدم الثقة بالنفس هو

العدو اللدود للحرية. بيد ان هذين "التقدير" و"التمييز" نفسيهما ينبغي ان يتما ببساطة ووجه منشرح، لا بتكلف او تشنّج، ولا بالشك في الاخرين.

افتراضُ حسن النية عند الاخرين هو جزء من الاحترام الواجب لهم، واحترام شخصية الآخرين وتكوينهم النفسي جزء من ممارسة الحرية الداخلية واتاحة الفرصة لهم ليكونوا هم انفسهم. وهذا حق للجميع. فكما اريد ان اكون ذاتي واعبر عنها بهدوء ووضوح وأصالة واعتزاز، كذلك يجب ان أتيح للأخرين أن يكونوا كذلك. وذلك بعدم اقتحامي خصوصياتهم، او فرض وجهة نظري عليهم واصدار احكامي الذاتية عليهم، او الرغبة في قولَبتهم بقالبي انا، او بحسب القياس الذي أضعه انا نفسي لهم. ترى ما الفرق بين الدكتاتورية ومثل هذا الموقف؟! تلك تقود الى الاستبداد بمقدرات الشعوب والتصرف، وكأن الناس مُلْكٌ لمن ملَكْ، وهذا يقود الى خنق الافراد بطوق من صنع يدي او إقامة وصايتي عليهم. وكلاهما إجحاف!

أخيراً، عزيزتي، اتخذي الثقة بالذات والفرح والأمل والحب صفات ثابتة... وسيتذوق شراعك طعم الحرية الحقة... والى اللقاء!

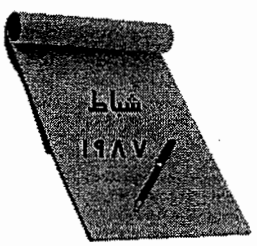

٢٢ أصناف الفريسيين

ارفضّ العشاء وانصرف المدعوون كلٌّ الى بيته، ولم يبقَ إلا شيخ هرم متقرفص في عباءته في إحدى الزوايا وكأنه، في تكوّره، قِطّ عجوز ذاهب في نصف غفوة.

- أرأيتَ وسمعتَ يا نيقوديمس؟ أرأيتَ الفضيحة، أمِن عار أكبر من هذا؟ يدّعي النبوّة ويتظاهر بالفضيلة... ويتركها تحتضن قدميه وتقبلهما وتمسحهما بشعر رأسها على مرأى ومسمع من ضيوفنا! وَمَنَ؟... امرأة ساقطة ومعروفة في المدينة كلها! وأين؟... في بيتي انا سمعان الفريسي!

كان الشيخ نيقوديمس يستمع الى صاحبه مطرقاً، فتنحنح وعدّل في جلسته، وبعد برهة من الصمت قال بصوت خافت دون ان يرفع عينيه الى محدثه:

- قد تكون على حق يا سمعان... ولكن منذ قصدتُه ليلاً ازدادت حيرتي واعجابي بهذا الرجل. انه يدفعك دوماً ما وراء الكلمات والصور. قد تهزك مواقفه وتفقدك توازنك... ولكنها في كل الاحوال تتحداك لأن تعود الى ذاتك العميقة...

- ولكنه يعرّض سمعتنا وهيبتنا لسخرية الرعاع ويرفع الزواني والخطاة والعشارين علينا نحن اصحاب الشريعة وحراسها...

واستطال النقاش بين الرجلين الى وقت متأخر من الليل... وكاد سراج الزيت يختنق في آخر حشرجة عندما رفع نيقوديمس من صوته قليلاً وقال:

- يا سمعان... تكلّمني عن الفريسيين؟ أتحسبهم يستحقون الثناء كلهم؟! اسمع ما أقوله لك: الفريسيون اصناف سبعة، أبعدَنَا الله عن الستة الأوائل:

- الفريسي الذي يحمل اعماله الصالحة على ذراعيه كما على طبق كي يراها الناس من بعيد.
- الفريسي الذي يسرع الخطى ابداً مدّعياً اللحاق بواجبه.
- الفريسي الذي يغمض عينيه اثناء سيره ليتحاشى رؤية النساء فيصطدم بحائط أمامه.
- الفريسي المسحوق تحت عبء احتشامه، فيسير ملتوي الظهر وكأنه برج آيل للسقوط.
- الفريسي الذي يكمل الشريعة وهو يحسب، كل يوم، رصيده من الثواب الذي تعد به.
- الفريسي الذي يمتهن الصلاح، لا حباً ولا عبادة، بل خوفاً من العقاب.
- والصنف السابع، وهو وحده الفريسي الصالح، مثلك ومثلي!!

قال هذا ونهض نيقوديمس عائداً الى بيته تاركاً سمعان في حيرته... (ونحن في تقديراتنا الى أي صنف من الأصناف السبعة ننتمي!)...

من نبي متقاعد الى يسوع

٢٣

يا ما قيل له: اكسر عصاك وكفّ عن الترحال وطرق الأبواب. اعقد لسانك واسكت، وعد الى صومعتك ونم قرير العين لا يهمّك همّ، ولا يغمّك غمّ، فالدنيا لولاك بألف خير.

واصابه الحزن واليأس ذات مساء فأوى الى مخدعه ومرارة شديدة في حلقه، وقد نوى ان يقدم استقالته الى ربه، كما فعل سلفه ارميا من قبله، وتناول ورقة وقلماً وكتب:

الى يسوع بن يوسف النجار، سلام.

لقد صرت إضحوكة كل النهار، فكل واحد يستهزئ بي، لأني كلما فتحت فمي، فانما أصيح خلاف ما يريدون، فصار لي كلامك عاراً وفخاً. فها أنذا أقول: لن أتكلم باسمك من بعد. ولكنك انت نار آكلة فيّ، لذا لا أنصرف عنك حتى اقول لك ما في قلبي عليك.

اول ما عرفته عنك في وعي طفولتي صورتك محاطاً بالاطفال على غلاف كتيب انتشلته خلسة من بين كتب اخي الكبير، وقد اخذه مني كاهن التعليم المسيحي، رحمه الله، ليتصفحه ولم يعده اليّ الى يوم الله هذا. عبارة "دعوا الصبيان يأتون اليّ" مكتوبة على الغلاف على شكل نصف قوس بقيت محفورة في ذاكرتي.

ولما كبرت... تبعتك كبطرس الصياد ومتى العشار ويعقوب الغيور، واحببت فيك عمق انسانيتك مع المرأة الزانية، وصفاء

صداقتك ووفاءك مع لعازر واختيه مريم ومرتا. احببت تحيزك الى صغار الناس والضعفاء، وكم تساءلت لماذا هذا الجمع الغفير من العرج والعمي والمجانين والمعوقين والنساء الغريبات حواليك. احببت بساطة كلامك النافذ الى القلب والوجدان مباشرة، سواء حين تنظر الى الله او تتوجه نحو الانسان. احببت فيك عدم تعقدك من احد، رجلاً او امرأة، مؤمناً او دخيلاً، فتتعشى عند العشار زكا، وتشرب خمر الفريسي سمعان، وتلبي دعوة الضابط الروماني، وتمسح رجليك بشعرها المجدلية. أوَ أقول أكثر؟... لقد احببت اراءك حول الدين والشريعة وأعجبتني جرأتك مع هذه الطبقة الحاكمة ومن يلف لفها من الطفيليين والمتزلفين وحملة المباخر. آه، كم اعجبتني سياطك على ظهور تجار الهيكل. يا ليتك وجهتها اليوم الى ظهور احفادهم تجار الحروب والقنابل...

أجل لقد انجنبت اليك مع كل ما فيك من تناقضات.. فلقد نسيت ان اشير الى حبك للطبيعة والعزلة ومباغتة الصباحات على بحيرات فلسطين وجبالها الى جانب حبك للمجابهات ولقاء الناس. أفيكون لي ما أقوله لك ايضاً بعد هذه العشرة الطويلة؟ - بلى... أن تزقزق العصافير على اشجار قريتنا، عوض ان ينعق البوم في خرائبها؛ ان تخضر الحقول، عوض ان تحرق. ان تصهر السيوف والمدافع وتُصنع منها محاريث ومناجل... وان يكف خطباء الدجل من هذا الدين أو ذاك على إيغار صدور مستمعيهم حقداً على مواطنيهم من ابناء الدين الآخر!...

والسلام

٢٤ مبايعة

ونهضت راهبة عجوز أثقلت الأيام مشيتها وتجمعت تجاعيد الدهر كلها على وجهها الذي كان جميلاً في يوم من الايام، وفتحت سفراً من اسفار حكماء التوراة لتقرأ على اخواتها الخاشعات في خلوة المعبد:

قبل عشرات المئات من السنين، وفي بقعة من الارض لا اسم لها، عقدت الاشجار مؤتمراً لمبايعة احداهن ملكة عليهن. فاجتمعت كلها الى الزيتونة -لما تَوَسمّت فيها من خضرة دائمة وعطاء وافر ووقار- وقالت لها: "كوني علينا ملكة". فأجابت الزيتونة باعتزاز: "أأدع نسيم الصباحات وأضحي بزيتي الذي من اجله تكرمني الآلهة والناس وأذهب لأستعلي على الشجر، لا لن أفعل". وتوجهت الأشجار الى التينة وقالت لها: "تعالي انتِ فكوني ملكة علينا". فأجابت التينة بأنفة: "أأدع حلاوتي وأتجاهل طعمي الشهي واوراقي التي تستر العريان وتهفو الى ظلها العصافير وأذهب لأستعلي على الشجر. كلا لن أفعل". فقصدت الاشجار الكرمة وقالت لها: "كوني انت ملكةً علينا". فضحكت الكرمة وقالت بدلال: "أأدع خمرتي التي تُسرُّ قلب الله والانسان وتفرج عن الخواطر المحبوسة وتطرد الكآبة من وجوه الاحباب وأذهب لأستعلي على الشجر. كلا ثم كلا". فاستقر الرأي اخيراً على مبايعة العوسجة، فذهبت اليها الاشجار كلها وقالت لها: "تعالي انت فكوني علينا ملكةً". فصعد الكبرياء الى رأس العوسجة، وانتفخت كأجنحة الطاووس اشواكها، وقالت بكل وقاحة:

"ان كنتن حقاً تبايعنني ملكة عليكن، فتعالين واستظللن بظلي -وكأنني بها تقول: تعالين أسجدن لي وأخفضن هاماتكن تحت اقدامي لتكنّ بمستواي وحضيضي- وإلا فَلْتخرجْ نار من هشيمي وتحرقكن"!

طوت الراهبة السفر وجلست... وكانت كل الابصار شاخصة الى كتاب الحكمة، ماذا يقول...

قيلت الحكاية في قاض ولاّه بنو عشيرته عليهم، ثم نكل بهم. إذ إن الناس غالباً ما يولّون على أنفسهم عوسجة، ثم ينتظرون منها عنباً او زيتوناً، وليس فيها من الخير سوى الشوك!... أليس هذا أمر فلان وفلان مع بني قومه؟!.

ولكننا نرى فيها ايضاً امثولة لمن ليس في يده سوى التبجّج او التشكي من ان الظروف تخدم الاخرين دونه دوماً، فيبرزون حيث يبقى هو في الظل - ولربما في ظلهم!

التفاضل جيد، وقد يكون اول الطموح. غير ان الابداع من موقعك وفي المجال الذي انت فيه امر منوط بك. فالزيتونة والتينة والكرمة تعلمنا ان في كل انسان جوانب بروز وابداع منها ينطلق نحو النور اذا عرف اكتشافها واستثمارها، لا بتقليد الاخرين حيث هم. لا تقعْ في خطأ العصفور الذي أراد تقليد العندليب فَشُقَّتْ حنجرته، او الضفدعة التي قلّدت الفيل فكان ما كان. إلعب دورك أنت لا دور غيرك، لا تتقمص شخصية زيد او عمرو، وإلا ضيّعت المشيتين!

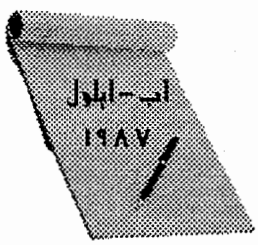

٢٥ مكايات موصلية

في مجلس رسمي وامام شخصيات وَفَدت لتقدمة التهاني بمناسبةٍ ما، أُثيرت مواضيع عامة حول الطقس والرياح والأمطار، وحول بعض الانجازات الخدمية، من تبليط شوارع وإنارة ساحات وتجميل حدائق. ثم اتخذ الحديث منعطفاً مرحاً. فبادرني عميد الوفد -وهو مسؤول مرموق في المدينة وصديق، يتصف بسرعة الخاطر- وقال: "ايه، ابو فادي، انك تكتب عما رأيت هنا وهناك. اكتب عن المصابيح الكهربائية التي يكسرها الاولاد في الشوارع وعلى الجسور...".

مضى زمان وجاء زمان وانا أتحيّن الفرصة لأضع هذه التوصية موضع التنفيذ... حتى استرعى انتباهي زميلي، قبل ايام، ونحن نجتاز الجسر الثالث ليلاً، وقد انطفأت اكثر من نصف مصابيحه، كسراً واشتعالاً! وقد لا يكون الجسر الثالث حالة فريدة من نوعها في مدينتنا!

اما الحالة الفريدة فهي التي روتها مهندسة مقيمة في احد المشاريع الاسكانية الحديثة في احد مداخل المدينة. ملخّصها ان الجهة المنفّذة، مَدَّت بين ما مَدَّت، شبكة لصنابير الحريق، وقد غطت كل صنبور ببرميل واق لحمايتها من عبث الاطفال. ودارتِ الايام، وتضاءل عدد البراميل واختفت شيئاً فشيئاً من الوجود لاسباب غامضة... الى يوم تفاجأت المهندسة بأحد الساكنين ينتشل برميلاً

من موضعه ويدفعه برفق الى شقته ليستخدمه لقانورات بيته... وكان المستفيد -يقول الراوي يا سادة يا كرام- مسؤولاً إعلامياً!!

وعلى ذكر القانورات... ماذا أقولُ وماذا أكتب؟ هل تصدق ان شارعاً عاماً في وسط المدينة يتحول كل صباح باكر الى مركز لتجميع النفايات على شبه هرم من القمامة، قبل تعبئته في السيارات الناقلة؟!

وهل تصدق ان شارعاً فرعياً في أحد الأحياء الجانبية، يجاور مؤسسة عامة واكثر من مدرسة، او يقع في طريق تلامنتها، قد اصبح مزبلة عامرة من الرأس الى الرأس؟ ويا ليتك رأيت اولادنا اكبادَنا تمشي على... المزابلِ، عائدة من مدارسها وهي تتقافز مع حقائبها فوق هذه الرياحين!

اما الحاويات، وما أدراك ما الحاويات! وُضعت لتحوي القمامة، وها هي بأبوابها المشرعة للرياح الأربع او المحطمة قد صارت محطات لتوزيع القمامة! أعرف إحداها، وضعت في جزرة وسطية على ملتقى اربعة شوارع، وبقدرة قادرٍ اختفت يوماً، بعد ان وزعت من خيراتها اصنافاً لسنوات طويلة. فتحولت الجزرة الوسطية الى حديقة وسطية... ولكن من نوع خاص!

اذا لم تصدقوا ان ذلك -وغيره- حاصل في المحافظة الفائزة بالمرتبة الاولى في النظافة، فانا مستعد ان افعل ما فعلت تلك المرأة الانكليزية حين ابطأ عمال التنظيفات اليها، كيف استقدمت صحفيين ومصورين ليصوروا ما تجمع امام دارها من نفايات... شهادة عليهم. وثم تعالوا اهتفوا معي: العافية لأهل الحي... والسلام على الاقسام البلدية... والموت للاستعمار!

٢٦ بدر الدين لؤلؤ

فتشت عنه في منجد الاعلام في حرف الباء ولم أجده. مع انه بدر في الدجى. وسألت عنه حرف اللام ولم أعثر عليه. مع انه لؤلؤ زمانه. وعوضاً عنه وجدت (لولي) الكمنجاتي الفلورنسي، ولومومبا الكونغولي الذي اغتيل في كاتنغا. اما هو فبدا لهم نكرة لا تستحق الذكر. فاستنجدت بصديقي ابي خير الدين جزاه الله:

ويحهم! قال. اوَ يجهلون بدر الدين ابا الفضائل لؤلؤ. هذا المملوك لنور الدين زنكي الذي اعتقه ثم تسلم مقاليد الدولة الاتابكية في الموصل بعد وفاته سنة ١٢١١؟ أوَ يجهلون هذا الذي في ايام سلطانه كانت الموصل "ام البلاد ونزهة العباد ومحط العدل ومنبع الفضل"، كما يرد في "منهل الاولياء" لياسين العمري؟ أوَ يجهلون هذا الذي ترك بصماته على أبواب الموصل وقلاعها ودورها وأعطى اسمه لجوسقها الذي يعجز لسان احمد بن بوران الموصلي النقاش عن وصفه، فيقول فيه:

"اذا ما رنا طرفٌ ليدرك شأوَه: يعود كليلاً دونه لم يسامه"؟ في ايامه عرف الفن المعماري والزخرفي والنحت والتخريم في الحجر عزّ مجده وعصره الذهبي. سل عنه جوامع الموصل ومحاربها وكنائسها واديرتها القديمة، فهي الشاهد الأبلغ الصامد حتى اليوم.

"بدر الدين والدنيا" هذا، اقترح اقامة تمثال له في احد مداخل او ساحات الموصل تخليداً للؤلؤة من لآلئ ام الربيعين!.

ان تخليد الاعلام اعتراف الاحفاد بعبقرية الاجداد وفنار للاجيال القادمة، للاعتزاز والقدوة... وهي بالتالي عملية من عمليات "كتابة التاريخ".

في الغرب يصونون بيوت المشاهير والفنانين، وان كانت متواضعة، وتصبح متاحف وقبلة للزوار. او يخلدون ذكراهم بطوابع بريدية تحمل صورهم او شيئاً من ابداعاتهم. فما رأي المؤسسة العامة للبريد بطابع بريدي لشاعرنا الجيكوري بدر شاكر السياب. وآخر لملحمة الحرية لجواء سليم. وغيره للريازات والشناشيل التراثية البغدادية والموصلية والبصرية، وللأسد الاتابكي الرابض بنيله المعقوف في كنيسة دير مار بهنام الخضر، وقد حشره الفنان ملوياً على نفسه في وسط زاوية قائمة في اعلى باب رخامي مزخرف... وغيره وغيره من روائع الابداع العراقي. وما قول "مديرية الآثار" بصيانة بيت الرسام فرج عبو المهجور في الموصل وجعله متحفاً لبعض لوحاته وللنموذج المعماري الموصلي بأقواسه ونوافذه وحناياه. وما رأيها بتخليد الغرفة الطينية التي استلهمت فيها اغاثا كريستي تاريخنا وكتبت عدداً من رواياتها العالمية في مدينة النمرود الاثرية، وتوجيه السياح اليها؟

هناك جدار حر استحدث مؤخراً في الجامعات يكتب عليه الطالب بحرية ما يشاء، من رأي واقتراح ونقدن ويرفع رأيه الى مقام الرئاسة. انا، اذ أهلل لهذه الحالة الجديدة من الحياة العراقية، لا اطمح الى ذلك الشرف الأثيل. ولكني اطمح لان ينضم صوتي الى الخيّرين. فهو انما يريد مجد العراق. ومجد العراق بمجد ابنائه ومبدعيه... واطمح ايضاً لأن يحمل المنجد في طبعته قبل سنة الفين اسماء عراقية جديدة تألقت في الشعر والهندسة والعلم والسياسة وكل فنون الابداع... وأثْرَتْ تاريخ بلادي والانسانية.

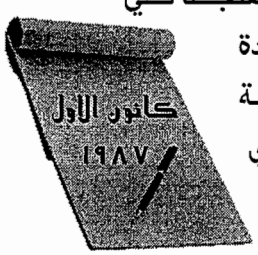

٢٧ رسالة من مقبرة

قادني الدهر في يوم مُشمس بعد مطر الى مقبرة قديمة مهجورة، ترقد في ظل كنيسة مهملة، على شكل حفرة واسعة منحدرة بغير تناسق، تخالها وادي الحشر من اختلاط العناصر فيها. فهنا ركام حجارة غلفتها الطحالب. وهنا بقايا تابوت تهرأ تحت المطر. وهذا شاهد تحطم نصفه وضاع اسم صاحبه. وتلك كومة من الاشواك تشابكت حول قماشة لا تدري ماذا كانت يوماً ولا ماذا كان لونها. وهناك مجموعة من القبور الغائرة تكاتفت في غير انتظام فأوت مستنقعاً عكس على صفحته المخضوضرة شبح البيوت الهرمة التي تطل عليه وقد ادارت للموتى ظهورها المتصدعة.

وتملكتني الرهبة... كيف كانوا وكيف صاروا... وما رأيتُني إلا وانا جالس على حجرة ناتئة وافواج من الناس يخرجون ويهبطون ثانية في الارض: شيوخ وصبايا وشباب. فقراء واغنياء ورجال دين وفلاسفة... وملأوا آذاني بحكاياهم وخطبهم يعظون الاحياء فيّ، ويحذرونهم قبل فوات الأوان. وكأني انا ممثل الاحياء كلهم في هذه المدينة.

وانبرى شيخ هادئ وحبّات سبحته تكركر بين اصابعه: ترى لماذا لا همّ للناس عندكم سوى للأكل والشرب والحقد والبغضاء والحسد والتهافت على الربح بكل الوسائل ومراقبة من أثرى ولم يُثرِ؟!

ورفع ناسك رأسه ليقول كلمتين ويتوارى: احذروا الهدر في الكلام المباح وغير المباح... فمن الناس، من كثرة ما يتكلمون، لا يبقى لهم الوقت للتفكير.

وخرج شاب من الزحمة ليقول بحماس من لا يريد ان يُقاطع في حديثه: يا اهل البنات من ابناء بلدي، او يكون الزواج عندكم مشروع حياة يبدأ بالمحبة ويبنى على بركة الله في الانسجام والقناعة والتعاون في السراء والضراء، ام هو صفقة تجارية... بالعواطف... وبالاسم... وبذات الجيب خاصة؟!

وجاء صوت أبحٌّ من آخر المقبرة ينددد بحب السيطرة في الاسرة: سيطرة الرجل على المرأة، وسيطرة المرأة على الرجل -من قمة الرأس الى أخمص جيبه اذا استطاعت الى ذلك سبيلاً- واستمالته الى أهلها واستمالتها الى اهله... فيتدخل الأهل في المعركة الى جانب هذا او تلك. وكأنها حرب بسوس تتكرر الى جانب المهلهل وجسّاس.

ورفعت صبية خجول صوتها من الجمع فقالت: آه من آفة التدخل في شؤون الآخرين وحشر الانوف في خصوصياتهم. وكأن كل واحد مخبر وتّيان على جاره بما فعل ولم يفعل. ولا بدّ انه فعله بسبب كذا وكذا! ألم تسمعوا أحداً قال لكم: لا تدينوا لئلا تدانوا... وبالكيل الذي تكيلون يكال لكم ويزاد؟!

وقام رجل في اواسط العمر وبيده كتاب وهو يقول: عبادتكم، ايها الناس، فلْتكنْ باخلاص وتواضع وصفاء نفس. وأرجوكم، حاولوا ان تجنوا شيئاً ايجابياً لحب الناس واحترام مقدساتهم كل مرة ارتدتم الكنائس او الجوامع. فلا الجامع، ولا الكنيسة بُنيا لكي تخرجوا منهما أقل حباً للناس، وأكثر حقداً على من لا يقاسمكم معتقدكم.

وبعد صمت وجيز هتف واحد لم يكشف عن وجهه، مشفقاً على المتزلفين والخاشعين تحت اجنحة المتنفذين والاقوياء وقال: ايها الاحباء، لكثرة ما تركعون امام السلاطين، ستنتهون عبيداً لهم.

وبكت طفلة تنادي امها: ماما... ماما!... فانتشلتني من غيبوبتي... كم دامت؟ لست ادري.

وتركت الموتى تتداخل اصواتهم مع اصوات الاحياء. في حلم كنت حقاً، ام في يقظة؟ ... الله اعلم!

السعادة بين يديك

٢٨

السعادة... من لا يريدها؟! من لا يتمناها؟! من لا يحلم بها؟! ولكن الاحلام قد يزعجها الشخير - لا سيما اذا كان شخير زوجين في سرير واحد-. انا أشخر؟- أبداً. ومع ذلك ٨٦٪ من الرجال و ٥٧٪ من النساء يشخرون في نومهم. لا يهم. العلماء عالجوا هذه المشكلة فاخترعوا جهازاً كالحاسبة الصغيرة اسمه "جنة عدن". في لحظة الشخير الاول يرسل اشارة صوتية معينة الى "الجاني" فيتوقف الشخير حالاً من دون ان توقظه... ويستمر آدم وحواء ينعمان بجنة عدن وهما يغطان في "سابع نومة".

ايها الاخوة المواطنون، هذا نموذج من نماذج الدعاية الاستهلاكية، تختلط فيها الدعابة بالترويج بالتشويق الذي يسيل اللعاب، وجدته في احدى الصحف الرأسمالية. ولو كنت "شخّيراً" لنزلت حالاً الى السوق المركزية لشراء الجهاز، وفي حالة عدم وجوده، لَقَصدت احد تجار القطاع الخاص لاستيراده بأي ثمن. وعلى ذكر القطاع الخاص قد عثرتُ قبل ايام في احد اسواقه العامرة على "سيت مائدة" من الستيل، قوامه ٦ سكاكين و٦ شوكات و٦ ملاعق طعام و٦ ملاعق شاي، مع اثنتين كبيرتين لصب الطعام... بثمن زهيد جداً قدره ١٥٠ ديناراً فقط.

و"جمعية النساء الاميركيات من اجل حياة مريحة" اخترعت لنظيراتها في العالم محفظة انيقة تجلب السعادة، ذات وجه

بلاستيكي شفاف ملّون الاطراف. تستطيع المرأة أن تنسّق فيها حُلاها وحاجياتها التجميلية والشخصية جداً جداً، لتكون في متناول يدها في اية لحظة تريد، في القطار، او في الحمام، او عند صديقتها، او في الدائرة.

اما للرجال، فقد ألهم فيلم "آي لاف يو" حاملة مفاتيح بالاسم نفسه تيمناً بالتي كان يحملها بطل الفيلم. فكل مرة تنفخ في الحاملة -وهي عبارة عن وجه فتاة جميلة- تجيبك بصوتها الدافئ: "آي لاف يو: انا احبك". وتضيف دعاية الحاملة: أليست تلك طريقة عذبة لتجد حاملة مفاتيحك كلما أضعتها؟!

وقرأت إعلاناً آخر في صحيفة استعمارية اخرى عن جهاز لإبادة الحشرات والقوارض -قد يفيدنا نحن سكان الاحياء القديمة لنعيش سعداء- يقول: "إليميناتور" -ومعناه "المبيد"- يخلصك نهائياً من كل الكائنات غير المرغوبة التي تلوّث بيئتك. انه يرسل اصواتاً خافتة لا يسمعها الانسان، ولكنها بوتيرتها الحادّة، تمزّق آذان الفئران والجرذان والبراغيث والصراصر والبق والبعوض وسائر الحشرات، فتفرّ مذعورة او تقع في الأسر، او تتساقط جثثاً هامدة. انه لا يضرّ الجنس البشري ابداً. ولا أياً من الحيوانات الأليفة كالسمك والعصافير والكلاب والقطط والدجاج. الضمان لسنة واحدة.

هذا غيض من فيض، مما يجعل السعادة بين يديك وفي متناول جيبك، أختمه بخبر جهاز رائع اخترعه العلماء الفرنسيون إبان الثورة الفرنسية التحررية الكبرى لمن يريد ان يموت سعيداً ومن دون ألم. وقوامه سكين تهوي في طرفة عين على رقبة المرشح. فلا يحسّ بالالم قبل هبوطها، ولا يشعر بشيء بعد هبوطها، وفي اثناء هبوطها يكاد لا يعلم بها لسرعة انزلاقها وحدّة شفرتها ودقة تصويبها.

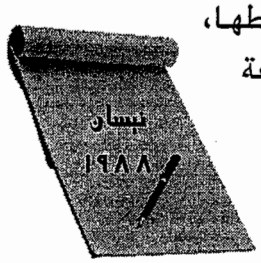

في رواق سليمان

٢٩

كان صدى كلمات المعلم لا يزال يرنّ في أنني، ونحن نتبعه واجمين في الطريق، كالسياط تهوي فوق ظهور الكتبة والفريسيين عندما فضح ازدواجيتهم ورياءهم وجشعهم امام صغار الشعب... كيف يسيرون كالطاووس المنفوش في الاسواق، ويتهادون فوق رؤوس الناس، ذات اليمين وذات الشمال، لتلقي التحيات.

- انظروا اليهم كيف يختارون صدور المجالس والاماكن الاولى في المآدب!

وتنكرت يوم كنا مع المعلم في عرس قانا، وكان نفر منهم هناك، كيف يتمنّعون من شرب الخمر على انه رجس، ليوقعوا بنا نحن لاننا كنا نحتسيه، وكيف انفتحت اساريرهم عندما مُدَّت الموائد فشّملوا عن اذرعهم وصاروا يرسلونها في الاتجاهات الاربعة، دون ان يَدَعوا صنفاً إلا واقتادوه، وهم يلتهمون بنهم وصمت.

- هؤلاء... يأكلون حتى بيوت الأرامل بعلّة انهم يطيلون الصلاة!

وتراءت لي صورة تلك المسكينة التي أكل لاوي بن كوهين دجاجاتها التسع بحجة انه ذكر اسمها وحاجتها امام مذبح الرب لمدة تسعة ايام متتالية.

ودخلنا ساحة الهيكل العظيم من باب الغنم حتى وصلنا الى رواق سليمان، وجلسنا حول المعلم على الارض، وأسندنا ظهورنا الى

الحائط قبالة الخزانة. وكنا نراقب الناس يتهافتون لايفاء نذورهم وتقادمهم وتبرعاتهم.

وجاء الوجيه ناحوم... وفي حركة مسرحية أخرج من عبّه حزمة من الدنانير وعَدّ منها مئة، ديناراً ديناراً، وألقاها في ثقب الخزانة مشيراً الى انها لزيت الهيكل. وانصرف رافع الرأس.

وتقدم الخواجا حزقيل وأذيال ثوبه الطويل تمسح الارض، ونَقَدَ لحارس الخزانة عشرة آلاف دينار لبناء نصب تذكاري لولده المتوفى، وسط فناء الأمم.

وسمعت مشادة بين مزراحي -وهو ثري من الاثرياء الجدد- وكاهن التقادم، مفادها ان مزراحي يريد اقامة شاهد من الذهب باسمه على مذبح الشهادة. هل استجاب الكاهن؟ لسنا ندري، لان معتوهاً شقّ صفوف المحسنين وهو يتراقص ويلاعب قطعة نحاسية في الهواء ثم يتلقفها، وألقاها في الخزانة وهو يضحك ضحكة بلهاء، وتوارى... وكثير من الاغنياء ألقوا شيئاً كثيراً.

ثم جاءت ارملة وعلى وجهها اخاديد التعب وارهاق السنين ووشوشت الكاهن بشيء وهي تشير الى زنارها، ثم توارت. لقد جاءت بحصيلة عمرها من الكدّ والحرمان، الف دينار، خاطتها بين طيّات زنارها الخشن للأيام السود، وتوارت في حمام دار النساء، تنزع الزنار، تفتقه، تخرج ثروتها وتعطيها للكاهن للمشاركة في بناء كنيسة جديدة لاهل الريف: هكذا روت لنا مرتا اخت لعازر. وأتت فلاحة عجوز مقوّسة الظهر وهي تتدحرج في مشيتها وقد ضمّت يدها المعروقة بقوة وحرص شديد وأخرجت منها ثلاث أوراق خضراء مدعوكة وألقتها هي ايضاً....

فالتفت الينا المعلم بعد صمت وقال: هذه وتلك ألقيتا اكثر من جميع الذين القوا في الخزانة، لانهم كلهم القوا من الفائض للتباهي والمزايدة. اما هما فمن حاجتهما ألقتا كل ما تملكان، الحق أقول لكم ان القلب هو الذي يعطي، لا الجيب!

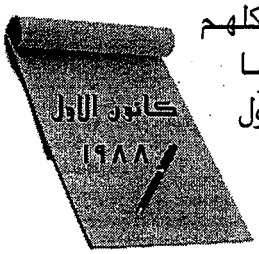

٣٠ برجك ايه...!

برج الجدي (٢٢كانون الأول-٢٠ كانون الثاني): الرياح باردة من طرف الجيران. احذر الزكام. الأرق الذي يصيبك لا تعالجه بالتدخين. تفاحة باليد خير من عشرة على الشجرة. شاهد برنامج الرياضة في اسبوع. يوم السعد الاثنين. رقم الحظ ١.

برج الدلو (٢١ كانون الثاني-١٨ شباط): لست عجولاً فلا تكن كسولاً. إذ لا أصغر بعيني المرأة من الزوج الكسول. ستحصل على طبقتي بيض شرط الحصول على دفتر في السوق المركزي. لا تماطل في تنفيذ ما نويت عليه.

برج الحوت (١٩ شباط-٢٠ آذار): من الصعب ان تبتلع ماء البحر كله. انه مالح على كل حال. غمّ يصيبك كلما ذكرت شخصاً معيناً. فتناساه. المرونة دواء العقلاء، ابو سوبر طويل القامة لابس عقالاً يعترض طريقك. بسمل بالرحمن وتحاشاه.

برج الحمل (٢١ آذار-٢٠ نيسان): إحذر التحرش ببنات السرجخانة فسيارة الشرطة تنتظرك بالمرصاد. مشاكسات عاطفية في سهرة الخميس. خير صديق لك كتاب. وخير دواء لك برنامج المقام العراقي. مفاجأة في الباص.

برج الثور (٢١ نيسان-٢١ ايار): مشاجرة عائلية عابرة بسبب حب قديم. قلّل من الطعام الدسم ومن الشرب واكثر من تناول الفلفل والفواكه والفجل. انقطع عن التدخين يوم السبت ١٣.

برج الجوزاء (٢٢ أيار-٢٣ حزيران): الحب عندك عميق ولكن ناره بحاجة الى تحريك لينتبه اليها صاحبك. راقب الامور من الخارج وابق فيها حكماً لا طرفاً. مشكلة تجد حلاً على يدك. لقاء او تجمع او سهرة عائلية صاخبة. كن هادئاً.

برج السرطان (٢٤ حزيران-٢٣ تموز): داء النسيان يخسرك الاصدقاء، لا تنسى عيد ميلاد الحبيبة ولا الهدية. إنسَ الضغائن، تنل فائدة كبيرة. يوم السعد الأحد.

برج الاسد (٢٤ تموز-٢٣ آب): تفرض نفسك بقابلياتك ولكنك تفسد نجاحك بالتبجح والغرور. احذر التصرفات المتسرعة خاصة مع الجنس اللطيف. حاول ان تصمت يوماً في الاسبوع عندما يتكلم الاخرون.

برج العذراء (٢٤ آب-٢٣ أيلول): رقّتك كرّقة العذراء. انت في حالة حب دائمة والحب طموح. وطموحاتك اوسع من امكانياتك الحقيقية. نصيبك الكآبة. عالجها بالضحك و لا تكشّر فالتكشيرة تضر بصحتك.

برج الميزان (٢٤ أيلول-٢٣ تشرين الأول): فرص مؤاتية لحل المشاكل العاطفية ومشاريع الزواجات المستعصية. مواليد النصف الأول: قرروا بسرعة، اما قطع العلاقة وإما الاتكال على الله. مواليد النصف الثاني: على قد بساطك مدّ رجليك.

برج العقرب (٢٤ تشرين الأول-٢٣ تشرين الثاني): تتألم عندما تؤذي غيرك عن غير قصد. فانتبه الى لسانك. صديق قديم يزورك على غير انتظار. نصيحتي لك اذا اردت ان تكسب الاصدقاء: عليك بثلاثة: تعلّم ان تشكر الناس، اخدمهم، امتدح ايجابياتهم.

برج القوس (٢٣ تشرين الثاني-٢١ كانون الأول): حرصك الزائد يجعلك شديد الحذر. مما يفوّت عليك فرصة الاحساس بمن يحبونك. اعطِ نفسك شيئاً من الراحة. القوس اذا بقيت متوترة قد تنكسر. عليك نذر اوفه.

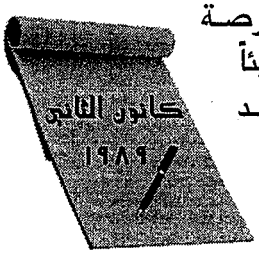

٣١ إضحك للدنيا بتضحكلك

عندما استيقظ صباحاً وحتى الفطور أتكلف الكلام وأكون عبوساً.

وعندما يكون الجو غائماً او ماطراً أشعر بانقباض فينتابني زمهرير من التضامن مع الدنيا وعناصر الطبيعة فأتجهم.

وعندما يستعصي علي العثور على معجون الطماطة في السوق، تحصل لي كآبة. وعندما ارى رئيس التحرير مصاباً هو نفسه بالكآبة لشأن من شؤون الطبع وشجون المطابع... أُصاب بالعدوى.

غير ان تلك حالات استثنائية لا تتكرر كل يوم، والحمدلله، فهناك ومضات وانقشاعات كثيرة في الحياة. اذا لم تكن تدفعك الى الضحك والفرفشة دوماً... فهي تدعوك الى التفاؤل والابتسامة... كتعليق نكي صادر من طفل صغير... او كهزة ردف من شيخ عجوز يوم زواج ابنه البكر... او رعشة زهرة النرجس السباقة في التفتح حتى في عز هذا الشتاء القاحل المتجمد، الذي يصر على صد الباب بوجه الربيع، وكأنها تقول: ما دمت هنا فالربيع آت!

ولكن من الناس مَن تشتري الضحكة منهم بألف درهم. ومنهم من تخصص جائزة لمن يعثر على ابتسامة تعتلي شفاههم في الليل او في النهار!

الى وقت قريب كانت الابتسامة محظورة على مذيعي ومذيعات التلفزيون... ثم حطم الجنس اللطيف هذا الحظر برقة ودلال، وسرت العدوى الى الجنس الخشن فصار يختم نشرات الاخبار بابتسامة سريعة مؤدبة. بقي ان ينتقل "الفايروس" الى الشخصيات التي تشترك في بعض الندوات او المقابلات التلفزيونية... والى اوجه العرسان الجدد عندما يقفون امام الكاميرا للقطة العمر، او عندما يتقدمون لقص كيكة العرس.

عَرف بعض علماء الاجتماع الانسان بأنه حيوان يضحك. ولكني اعرف امرأة لم ارها قط في حياتي تضحك او تبتسم، وحسرتي الكبرى هي ان اشاهدها تضحك او تبتسم، ولو مرة قبل ان تموت... او اموت انا. من أي صنف من الكائنات الضرعية هي؟ أحيل السؤال الى ذوي الاختصاص في علم الاجناس والمخلوقات. وهناك غيرها ممن لم تسمع منهم يوماً عبارة "صحتي جيدة انا بخير" اذا سألتهم "كيف الحال؟"، اذ يحسبون انفسهم مظلومين منذ حبلت بهم امهاتهم، وأن المشاكل والامراض والمصائب لا تصيب الناس سواهم، وان الله يلاحقهم دائماً ابداً -وكأن لا شاغل له غيرهم- ليضربهم وينكبهم ويشقيهم. هؤلاء لا يرون الدنيا الا بنظارات سود، او هم كهذا المتشائم الذي لا يرى من الكأس إلا نصفها الفارغ. تشكى احدهم من ان الشوك في الورد دائماً، فأجابه متفائل: اما انا فأشكر الله على ان الورد ينبت فوق الشوك!

الضحكة مفيدة للصحة، والنكتة دواء يصفه الاطباء، وخفة الظل لم تمنع كردينالا عالي الشأن ان يعطي عنواناً لكتاب له: "امشي كحمار"! دون ان يفقد منصبه او هيبته. وصدق من قال: "جيد ان نضحك على انفسنا من وقت لآخر، كي لا يضحك الناس منا دائماً".

في القدس يموت البابا

٣٢

"هياسانت" بابا ابصر النور في مخيلة كاتب فرنسي يحب متابعة اخبار عظماء هذه الدنيا الفانية. وباباه رجل روحاني تأكله غيرة بيت الله، عندما عجز عن تغيير اسلوب الحياة في الفاتيكان وطريقة تفكير موظفيه، قرر الانسحاب بصمت والتخلي عن كرسي البابوية وعاد الى صفوف العامة لتذوق خبز المعاناة اليومية، فاذا اسمها: البطالة، البحث عن العمل، الحاجة الى المال، العزلة، الجوع...

وتخلق هزيمة البابا وضعاً دولياً وسياسياً ودينياً معقداً. وتتجند كل المخابرات السرية في العالم للبحث عن البابا الهارب. وتعيّن المخابرات السوفيتية، لتتبع خطواته، امرأة تتمتع بالجمال والاغراء، لا همّ لها، في الواقع، سوى ان تذهب مع طفلها الى القدس والعيش هناك. وبما ان الكنيسة الكاثوليكية لا يمكنها ان تبقى من دون راعٍ، فقد انتخب احبارها خليفة لهياسانت باسم البابا بيوس الثالث عشر.

وبيوس الثالث عشر سرعان ما تستهويه النجومية، فيطوف العالم طولاً وعرضاً، وتتجمع حوله الجماهير هاتفة بحياته، وشيئاً فشيئاً يتقمص شخصية الله، ويرى الكنيسة كلها في ذاته.

ويلتقي البابوان صدفة!

بيوس الثالث عشر كاهن ايمانه راسخ كالصخر، ونزاهته لا غبار عليها، يحب ان يعرف ماذا تقول الجماهير عنه بعد الهتافات المحمومة التي تتلقاه بها. فيحدثه هياسانت عن دور البابوية بعد المجمع ويقول له: او يحق للبابا، من بعد، ان يُستقبل كرئيس دولة؟ الاخلاقية العائلية هل ينبغي ان تبقى بهذا التشدد؟ أصحيح ان مبادئ الديمقراطية لا يمكن ممارستها داخل الكنيسة؟ فيجيب بيوس الثالث عشر: ولكن السلطة البابوية ليست غنيمة يتقاسمها أي كان. انها إرث الهي، والتقليد لا يمسّه احد. فيلتهب صوت هياسانت ويقول: ولكن الكنيسة شعب الله، والعلمانيون، ولاسيما النساء، لا تعطى لهم المسؤولية، والكهنة العزاب ليسوا أهلاً بمعلوماتهم للحديث عن العلاقات الزوجية، والبابا لا ينبغي ان يمارس سلطة مطلقة، وهرج الجماهير لا يبقى له اثر في القلوب... وبعد صمت مكتوم يجيب بيوس الثالث عشر: ولكن الجماهير تحتاج الى رئيس جيد وراسخ الثقة بنفسه. انهم بحاجة الى الاحساس بواقع الكنيسة المنظور، فالمؤمنون لا يبقون مؤمنين ولا يزيد عددهم بتغيير التقاليد كل يوم وبالتردد في العقيدة.

وتنشأ صداقة بين الرجلين.

غير ان هياسانت تقوده قدماه الى نادية، فيساعدها على تحقيق حلمها ويجتازان حدود فلسطين ليلاً سوية... غير ان لغماً ينفجر بهما. وهناك، في احد مستشفيات القدس يموت البابا هياسانت! خيال؟ اسطورة؟... ولكنها عبرة. بقي ان تعرف ان اختيار اسم "هياسانت" ليس عرضاً، فهياسانت بابا بولوني من القرن ١٣ حاول توحيد الكنيسة الشرقية والغربية.

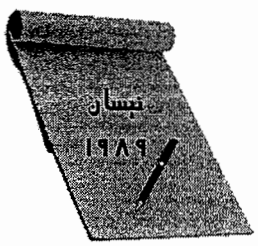

٣٣ إن لم تعودوا كالأطفال...

- ما الذي يخطر ببال الله ليخلق كل هذه الأشياء!!

قالها فادي الصغير فجأة وهو ينظر، من خلال نافذة السيارة، بدهشة ونشوة وتعجب الى الحقول الربيعية المترامية التي تهرول بحركة عكسية وراء السيارة بأشكالها الهندسية المختلفة وألوانها الضاحكة، والى تضاريس الأرض المتموجة تلالاً خضراء متكئة على بعضها البعض، ووديانـاً تضم قطعاناً قطعاناً متراقصة من شقائق النعمان والحندقوق الاصفر والبيبون. وكان الطريق يتلوى بنا ويتثنى وسط مروج يداعب النسيم هاماتها فتتمايلُ بغنجٍ ضفائرَ ضفائرَ متلاحقة، حتى تتكسر وتتلاشى عند اقدام "الجبل الازرق"، الذي رآه الصغار ازرق لبعده. وكانت اصواتهم تتعالى وتتداخل ضحكاتهم النزقة كل مرة هوى بنا الطريق من ارتفاع، ويصطنعون الرعب ويصطخبون بقدر ما يأتي الهبوط سريعاً، فيتخيّلون السيارة صاروخاً مارداً. واصابت العدوى اختهم الصغرى التي ما كادت تطوي عامها الاول فراحت تتغاوى على ذراعي امها متضاحكة وهي تلطم زجاج النافذة بيديها الناعمتين.

- اولادي سيجنّون! قالتها الأم وغبطة ابنائها العارمة تنعكس في عينيها الواسعتين.

ثم انطلقت الحناجر الاربع بالغناء والأكفّ بالايقاع على نغمة انشودة وطنية حوّروها للمناسبة... بينما استمر الطريق الجبلي يدور بنا ويتلوى كالأفعى، متسلقاً أعلى فأعلى...

- بعد قليل سنصل عند اقدام الله!

يا له من عفريت هذا الفيلسوف الصغير!

انها اول سفرة يقومون بها خارج قريتهم المستلقية في سهل منبسط الى منطقة غير المدينة التي لا توحي اليهم بغير السوق والموطا والسيارات والزحمة. وعقولهم الصغيرة، العذراء من كل تلوّث، وعيونهم الصافية صفاء زرقة عيني اختهم الصغرى، لا زالت محتفظة بالقدرة على الاندهاش والتعجب والقراءة...

اما نحن الكبار، فقد أصبنا بالعجز عن رؤية الجمال وتذوق الطبيعة، واصبح همّنا كله منصبّاً على الربح والمضاربة: كيف انصب المقالب لزملائي في الدائرة؟!... كيف أحصل على اكبر ربح ممكن بأقل جهد ممكن في سوق النشاط التجاري؟!... بأية طريقة أتزلّف لأنال... على كم كتف أتسلّق لأصل؟!... كيف افرض سيطرتي؟ ... بالصوت الأعلى؟ بالكذب؟ بالوعود؟ بالوعيد؟!... أي تكتيك اتبع لأحصل على تأييد فلان وفلان وفلان في القضية الفلانية وأنسحب من دون ان يراني أحد؟!...

إن لم تعودوا كالأطفال...

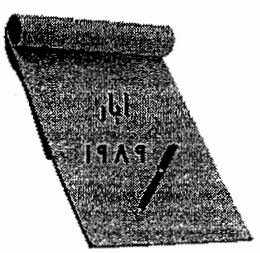

٣٤ "عمري ستة عشر عاما"

فتاة مصرية في السادسة عشرة من عمرها تشكو من نقص في اوكسجين الايمان، وتعاني من فقر دمٍ مزمن منذ الطفولة في معلوماتها الدينية، فتستغيث باهل الخير والاحسان. واليكم تفاصيل القصة:

شاءت الظروف العائلية -وكم تلعب الظروف العائلية من مقالب- ان تسكن "مناهل" مع ذويها في مناطق نائية وبعيدة عن الكنيسة وعن التواجد المسيحي دوماً، وذلك بحسب موقع عمل الوالد. والمدارس التي ترتادها لا تُدَرِّس الديانة المسيحية بالطبع. وهي منذ سنتين لم تتناول، وتستدرك في رسالتها قائلة في طيبة قلبها واحساسها العميق بالاحباط والشوق معاً: "وانا اعلم ان الذي يبقى مدة ٤٠ يوماً من دون تناول يرتكب خطيئة"! وتسترسل: "لا اعلم متى الصوم... متى العيد... ما هي الخطيئة التي من اجلها فدانا المسيح... اعاني من نقص كامل في الديانة المسيحية رغم انها ديني... ما اقرأه لا أستوعبه... وبهذا اكون مسيحية بالاسم فقط...".

و"لمناهل" هَمٌّ اخير يضاعف هموم قلبها الفتي العطشان الى الانصباب والاتصال، فَتنقول في شبه حشرجة اخيرة: "وما يزيد في همي ان مدينتنا الكبيرة لا تحتوي على تلفون مباشر لأكون على الاقل في اتصال هاتفي بالكنيسة..." -"مناهل" تسكن الان مع ذويها في مجمّع سكني قرب الفلوجة في محافظة الانبار- ثم

تطلق استغاثتها الكبرى من عمق معانياتها واختناقها: "ارجوكم، اناشدكم ان تضعوا حلاً للاسر المسيحية التي تناديكم لانقاذها".

أتدرون بماذا فكرت عندما قرأت رسالة "مناهل" وصرخة استغاثتها؟ فكرت بشيئين: فكرت بهذا المقدوني الذي رآه بولس الرسول في رؤيا يتوسل اليه ليعبر الى قومه ويبشرهم: "إجتزْ الى مقدونية وأغِثْنا!" (اعمال الرسل ١٦: ٩)؛ وفكرت بهذه المماحكات التافهة التي تستنفذ طاقتنا وانفعالاتنا حول كلمة قيلت وينبغي ان يُركَّع القائل، او غيرة أكلتني من عمل جيد قام به اخي وأرى فيه ادانة لي او منافسة، او محاولة خنق هذا الصوت النبوي او ذاك... وغيرها من المعارك الجانبية الهزيلة.

اما رسالة "مناهل" التي وَدَدْتُ لو نقلتّها بأكملها فقد أعادتني الى قضيتين اساسيتين حقاً تستحقان الانتباه، وهما: قضية الايمان والتثقيف الديني لهذه الجموع من الشباب التي تستغيث بالكنيسة؛ وخطورة العزلة الايمانية والعزلة الجغرافية المترابطتين اللتين تعاني منهما هذه الاسر المسيحية النائية. وجعلتني احلم حلمين: الاول في فريق متخصص يعنى بشؤون التثقيف المسيحي بالمراسلة، ويجيب الى الرسائل الشخصية والمكالمات الهاتفية، ويستخدم الكاسيت المسجل والكتب والنشرات؛ والثاني في فرق من الراهبات او الرسل المتطوعين يقضون شهراً او اكثر في السنة في مثل هذه المناطق المنعزلة، للتثقيف المسيحي والوعظ وتهيئة التناول الاول.

٣٥ رسالة سرية الى رجال العرب

قد اوقظكم من قيلولتكم الهنيئة، يا رجال العرب، وانتم تتذوقون ما تبقى من النهار في ظل خيمكم المشرعة لنسيم الصحراء العليل، والصيف مُوَلٍّ ظهره. فمعذرة!.

او قد أتطفل عليكم وانتم، كلٌّ منكم، بين رشفة قهوة ورشفة، منشغل في شأن من شؤون قبيلته، كيف يؤَمِّن لضانها الكَلأ، ولإبلها المرتع... ولربما لرجالها الغزوة! أَوَيلومكم لائم في هذا؟ لا، والعُزَّة، لا! أوَ لَم تقل العرب أنّ أولى الناس بالمعروف ذوي القربى؟!.

ولكن الأمر جَلَل، وقد بلغ السيلُ الزُبى. فكما كانت العرب في غابرها، كذلك في دابرها: خصام افرادٍ على تَزَعُّم او على بنت العم، او نزاعٌ على مرعى او مربعِ ماءٍ يستحيل الى صِدام عام بين قبيلتين او اكثر، فتتلظى الحرب اكثر من مرة، يُشعل فتيلها الشعراء، وتسقط الرجال وتُثكل الارحام... الى ان يستجير احدهم بأحدهم، او يخمد النارَ توسُّطُ قبيلة محايدة، فيوضع السلم، وتدفع الدية، ويعود كل الى خيمته. فهذه اوس، وهذه خزرج في بُعاث. وهذه بكر، وهذه تغلب في البسوس. وهذه ربيعة، وهذه طي وقُضاعة... فلقد جئتكم اليوم، يا رجال العرب، مستجيراً باسم النخوة والشهامة العربيتين، لبلد اسمه لبنان، هو ايضاً من بطون العرب، واقع في مخلب أشقاء له، يعملون السيف بحرائره والدمار في منازله، وكأنهم حلفوا برب الكعبة ألاّ يتركوه إلا هشيماً...

أفلا يستحق هذ الجبل الذي رفد نهر العرب برواد الحركة الادبية والفكرية، وبفطاحل الكلمة العربية، وبخيرة شعراء الضاد في العصر الحديث، وأيقظ القومية العربية من عرينها يوم كانت القبائل غافية او مغلوبة على امرها... ألا يستحق هذا الشاطئ الذي طالما استنشق بنو قحطان وعدنان وشمّر الراحة والحرية في أفيائه، ولجأ اكثر من امير مخلوع او مُطارَد الى خيمته... ألا يستحق ان يتألب رجال العرب، ولو كردٍّ للجميل -وهم الكرماء المجيرون- لنصرته بصدق واصرار ومن دون تنصّل، بدءاً برفع اليد عنه، حتى ولو، بل لاسيما، عندما تكون هذه اليد يد أشقاء، وإلا فكيف يرعوي الغرباء، ومن ثم معاونته على ترتيب بيته. أليس من شيمة الاشقاء ان يقفوا الى جانب اخيهم المظلوم، لاسيما اذا كان مثخناً بالجراح؟! وإلا فخوفي ألا تطالكم النار وتنزل بكم القارعة، وما ادراكم ما القارعة!

السنون تطوى فوق السنين، والموتى لم تعد تجد من يدفنها. اربعة عشر عاماً من الحرب أليست بكافية؟ مشاريع سلام تتهاوى كل مرة مضرجة بطعنات من وراء او من امام، لا فرق... والسلام شبح بعيد!.

بانتظار ردكم، يا رجال العرب، لبنان لا يزال يحترق ويتمزق، ويختنق ويحتضر، والاسد يغسل يديه مدعياً براءته من دم الصديق.

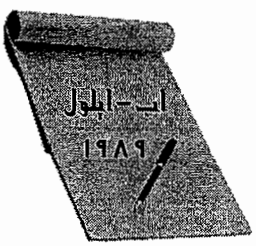

محطات مسافر

٣٦

روبولدينغ [بافاريا]: قرية وادعة تستلقي مسترخية كحسناء تستحم في ضياء الشمس، في قعر وادٍ تحيط به جبالٌ سفوحها غابات كثيفة، تحمل الوان الخريف الذهبية، ويكلل هاماتها وهج الثلوج الاولى. ادخل مطعماً ريفياً صغيراً. يبشّ لي وجه اسمر بنصف لحية، ما ان لاحظ اسمي وصورتي على البطاقة التي على صدري حتى بادرني منشرحاً بعربية فصحى لا غبار عليها:

- اهلاً وسهلاً. تفضل... كيف حالك يا محترم.

- شكراً، شكراً، انا بخير والحمدلله (قلتها مندهشاً لهذه المبادرة غير المتوقعة)

- هل تشرب قهوة ام بيرة؟

- شكراً جزيلاً... ولكن من انت؟

- انا وزير الماني!! (يا للمفاجأة)!

وكان الذي شربت القهوة معه بهذه البساطة والعفوية هو الذي افتتح المؤتمر باسم الحكومة الفدرالية الألمانية، والذين معه وزراء ايضاً. من دون حماية ولا مرافقين!

برلين: هذا الحائط رأيته عشرة ايام قبل ان ينهار. حائط العار الذي اقامه غباء نظام دكتاتوري ليمنع الناس من استنشاق الحرية. ولكن الوجه الغربي منه أحالوه مزيجاً من الألوان والرسوم الكاريكاتورية والعبارات المنددة بالقمع والنازية ولجم الحريات...

وكلمات الحب! جدار حرّ ظلّوا يكتبون ويرسمون عليه منذ ٢٨ سنة حتى تهاوى بثقل ما عليه.

ولكن برلين بالنسبة لي في ذلك اليوم هي متحف "برغامون موزيوم" ولا شيء غير ذلك. فلا تسلني عن النشوة التي تملكتني عندما اجتزت بوابة عشتار البابلية وسرت في شارع الموكب، وكلاهما ملغيان هنا منذ قرابة قرن. هذه الزرقة الاتية من بلادي. هذا الشموخ العراقي. تلك الاسود الفاخرة افواهها والثيران بمشيتها العنيدة... انا فخور بأن اكون واياها من وطن واحد. أتلفتُ، أتأملُ، أطيلُ التحديق، أُصوِّرُ، أعودُ على أعقابي، أبتسم مع نفسي وأكلمها.

باريس: تجمعوا على مدرج الكنيسة المترامي الاطراف في أعلى جبل الشهداء. باريس تلهو وتلهث تحت اقدامهم. زرافات زرافات من الشبان والفتيات. تخالهم تجمعوا على موعد. ولكن لا شأن لأحد بآخر. اعتلى كاهن صندوقاً خشبياً وسط جمهرة منهم يبشر بأعلى صوته: المسيح يحبكم، المسيح فداكم بموته، المسيح يريد سعادتكم، بالمسيح يسوع كلنا اخوة. اقرأوا انجيله، فيه تجدون المعنى الذي فقدتموه لحياتكم. وتسألني فتاة بيدها نشرات وانجيل: "هل انت مسيحي؟ مُمارس؟ اذن ساعدنا". وظننتها تنتظر مني دراهم. فقررت، بعد تفكير، التضحية ببعض فرنكات للمساهمة في عمل التبشير. وكم خجلت عندما قالت لي: "لا نريد فلوساً. انما ان تصلي من اجل نجاح رسالتنا".

وهذا الشاب الأنيق. يعمل في احدى قنصليات بلاده في قطر ما في افريقيا السوداء. يتكلم بتعال عن هذه الشعوب النائمة. عن زعمائها الذين قلما نجد بينهم من يعمل لمصلحة بلاده بقدر ما يعمل لأثراء حساباته المصرفية. عن السلاح الذي يشترونه للتقاتل في ما بينهم. فأقول: أوَليس من واجب الدول المتقدمة ان تأخذ بيد هذه الشعوب في تطورها؟ - فليتدبروا امرهم بيدهم، وليس لنا ما نعيده اليهم لقاء ما يدّعون اننا سرقناه من موادهم الاولية.

٣٧ افتحوا الشبابيك

ما هو الدفاع المدني؟

كمؤسسة، هو فريق المدنيين المجهزّين لاسعاف المواطنين إبان غارات العدو.

وكفكرة، هو تعبئة المواطنين لتحصين أنفسهم بأنفسهم إزاء طوارئ الحرب والتحّسب الوقائي لدرء الخسائر الى أقل ما يمكن.

ومن مبادئ الدفاع المدني فتح النوافذ لئلا تنفجر في الداخل من جراء الضغط الضاغط عليها فتتحول الى شظايا قاتلة.

هذا المبدأ ذكره القائد امام برلمانيين وقانونيين من مجلس التعاون العربي في جلسة كان روح الديمقراطية يرفرف عليها، في معرض كلامه عن التحولات الجارية في اقطار اوربا الشرقية. واستوى القائد في جلسته ورفع من نبرة صوته بعض الشيء ووجه كلامه الى العرب وزعمائها -والى غيرهم من الزعماء المستنيرين- لتفتح النوافذ، هي ايضاً. وكأني به يضيف في سر كلامه: "... قبل ان يفجّر الضغط الداخلي ما احتجز طويلاً من الكبت وحرمان الحرية وتعددية الفكر".

فتح النوافذ في التعددية الفكرية او السياسية... وعكسه يعني الاختناق في بوتقة فكر آحادي، او الانصهار في قالب الأقوى. والافكار، اذا كانت كالرياح لافحة احياناً، فمن دون تنوعها لا نميز بين

الشتاء والربيع والصيف والخريف، فالكل يغنّي موالاً واحداً او يرقص للمروّض ذاته.

فضلاً عما في الكبت دائماً من تراكم خزين للاستياء والشعور بالظلم والرفض المتحفز للانفجار، والانفجار لا يأتي غالباً على ما نروم.

فتح النوافذ، استنشاق الهواء الخارجي، ورؤية ما يجري حوالينا من حركة وحياة وابداع: انه تفاعل مع الواقع، مع الانسان الآخر، انه حوار مع التاريخ الذي ليس سفينة واقفة، مع الكون الذي نحن جزء منه، لا جزيرة معزولة... وفي هذا كله ما فيه من تجديد مستمر للذات. اما عكسه فيعني التحجر والضمور والتعرض للصمم، ويعني نقصاً في الفيتامين والاوكسجين قد يصل حد الاختناق.

ويصح ذلك في المجتمع المدني، وفي الاسرة، وفي أية مؤسسة او مشروع مهما كان صغيراً... وفي الكنيسة ايضاً.

هذا كله ذكرني بيوحنا الثالث والعشرين، رحمه الله، عندما فتح شباك غرفته في اول ايام بابويته مستنشقاً الهواء الطلق وهو يقول قوله النبوي المأثور: "لنفتح شبابيك الكنيسة، فيدخلها الهواء النقي الخارجي. لقد ثقل الجو في الداخل".

٣٨ همموم وثنية في زمن الربيع

(على هامش مهرجان الربيع في أم الربيعين)

انا ابن بقعة قاحلة، قضيت طفولتي ولم أر من الشجر سوى اثنتين: زيتونة الكنيسة -التي كان كاهن قريتنا الشيخ يدعو الزوار الغرباء لزيارتها باعتزاز، كما لو كان آدم قد استظل بظلها يوم خروجه من الجنة- وشجرة توت وحيدة في بيتنا، كانت تموت بعد عمر قصير بسبب الارض الحجرة على عمق معيّن، فيغرس والدي اخرى محلها كلما يبست، دون كلل... حتى اصبح منظرها جزءاً من الدار.

أوَ يعود تاريخ حبّي الاول للشجرة الى تلك الأيام؟ لربما! غير ان حبي للشجرة كبر معي واتسع بقدر ما كان يتسع اكتشافي لهذا الشمال الحبيب وتلك السفوح والقمم المكللة بالخضرة... متعة للنظر، وتلطيف للهواء، وصقل للطباع الخشنة.

ثم اكدوا لي وأقسموا ان للاشجار فوائد اخرى لا تعدُ ولا تحصى، منها ان اخشابها تصلح لبناء السفن، وان اجدادنا كانوا يصنعون منها ملاعق الطعام. ومن الاشجار تجنى الاثمار الشهية كالتفاح والبرتقال والجوز واللوز. وفي فيئها يستظل التعبان وتحت اغصانها يأوي العشاق. وكانوا قد اقنعوني ان جنة عدن كانت تكتظ بصنوف الأشجار، ولوّحوا لي بأن بعد الموت جنات تجري من تحتها الانهار... فيا ما حلمت بالماء والخضراء والوجه الحسن... حتى تيقنت اني لو ولدتني امي قبل عيسى لكنت من عبدة الاشجار!

ولكني ادركت خطأي وجحدت ايماني بالشجرة تماماً، وانضممت الى بعض الجهات المختصة بتخطيط المدن، حين اطلعت على المضار الجمة التي تسببها الاشجار للانسانية، ومنها ثمان على الاقل، وهي: تحجب نور الشمس، تجذب العصافير وتعكر الجو بزقزقتها، يسقط منها على الرؤوس ما لا يستحبه المرء، تجمع الذباب والزنابير والاطفال اذا كانت مثمرة، توسخ الارض في الخريف باوراقها الساقطة، تصطدم بها السيارات السريعة، تسبب مرض النوم تحتها، وخاصة تستعبد الانسان اذ عليه ان يسقيها ويحميها من العابثين ليل نهار.

لذا اقترح ان تقتلع الغابات في الموصل بأكملها، وترصف أرضها بالاسمنت لتكون ساحة للعب الاطفال، كما فعل مخططو الشوارع الجديدة فرصفوا الارصفة والجزر الوسطية باسمنت بادوش، وقرأوا السلام عليها -هم وعمال البستنة البلدية- بغير رجعة ولا هم يحزنون!

كما اقترح حرق الحوافي المشجّرة على الطرقات الخارجية، كما فعل البعض واستراحوا، فلا أُخمدت النيران ولا زُرِعَ البديل.

وأنصح اخيراً ألا يحمّل احد نفسه عناء التفكير باعادة تشجير الجبال والتلال التي احرقتها سنوات الحرب المجنونة.

واذا رفضت اقتراحاتي -وهذا ما اتمناه- فأدعو من يهمهم الامر الى زيارة بغداد ليروا كيف تشجّر المدن وكيف تزيّن الشوارع، ولماذا تهمل المدن العراقية الأخرى قاحلة من الشجر والزهر؟

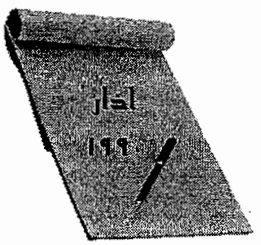

الطبيب والسكير والذبابة

٣٩

ابو قراط الطبيب الاغريقي الذي وضع قَسَم الاطباء قبل ٢٤٠٠سنة، كشف عن اربعة اصناف من الطباع لدى الآدميين: الانفعالي، والبارد، والغضوب، والكئيب.

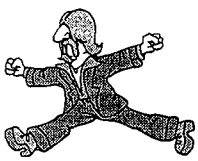

الانفعالي اول من يتقدم ويقول: "ما أسهل الأمر! سأباشر العمل حالاً". ويبدأ فعلاً، ولكن تسرعه لا يدع له مجالاً للحسابات فيقع في مآزق مستعصية: - ينبهر، مثلاً، بذات الشعر الطويل والعينين الواسعتين، ليكتشف -غالباً ما بعد فوات الأوان- ان تفكيرها أضيق من خرم الابرة. او تأخذ ببيع اثاثها حال إطلاق السفر، وهي لم تحصل بعد حتى على تأشيرة الدخول!... الانفعالي تراه سريع التحمس. غير مستقر. لربما طيب القلب، ولكنه، اذا اراد النجاح، عليه ان يتعلم التفكير والتأمل.

البارد يقف امام جبل متينا قبل ان يقتحمه، وينظر اليه مرة ومرتين وثلاثاً. يسأل عن طبيعة الصخور، عن مواقع العيون. يتفحص عصاه، يختبر حذاءه المطاط بنطة او نطتين. يعدّل سرواله. ويخاطب نفسه بلا أبالية، وهو يتلهى بعلكة: "لربما اصل القمة قبل الظهر!"... آه لو طَعَّمَ هذا البارد عزيمتَه بقليل من الحماس وبمثقالين من الانتباه الى غيره، لكان أوفر حظاً بالتعاطف معه!

الغضوب سريع الاشتعال، انيابه مكشرة ابداً. يتقدم نحو الهدف بكل قواه الاقتحامية وكأنه كبش هائج يندفع نحو غريمه! غالباً ما يحصل على نتائج باهرة نسبياً، وان لم يبلغ القمة. حساس وعجول في ردات فعله العنيفة... بقدر ما يحتاج الى نبذ التسرع، بقدر ذلك يحتاج الى نبذ التشاؤم والهجومية... إلا إذا ألتقى بمن له صبر سقراط مع زوجته: "لقد تزوجتها تعمداً، فاذا استطعتُ احتمال خشونتها وبلادتها، سأتمكن من احتمال جميع الناس"!

اما **الكئيب** او السوداوي فيرى كل شيء عكس ما هو، ويتراجع قبل ان يبدأ بالعمل. انه من سلالة هذا السكير الذي يتباكى من انه لم يبقَ له في البيت سوى نصف زجاجة من العرق، عوض ان يقول: "الحمد لله، لا زلت املك نصف زجاجة من هذه المادة الشحيحة في هذه الايام".

ويبدو فعلاً ان خبيراً ايطالياً اكتشف ان افضل مكان لمعرفة الطبائع هو البار:

اذا دخل رجل وقدم له النادل قدح بيرة فيه نبابة تتغاوى... فاذا كان الرجل انكليزياً طلب، بكل برود، "بيرة اخرى، أنظف رجاءً" وشربها من غير ما مشاكل، ودفع الثمن وخرج... ولكن من دون "بخشيش" للنادل واذا كان ايطالياً: "هيه! طلبتُ شراباً لا طعاماً!" ومع ذلك يشرب ولكنه يخرج ناسياً دفع الحساب... واذا كان المانياً، قطّب جبينه، وأغلق عينيه، وأمال رأسه الى الوراء، ثم رفع القدح الى فمه بكل انضباط وأدب وابتلع البيرة والنبابة معاً! ! اما اذا كان عراقياً، فيضرب القدح وما فيه يوجه النادل مع حفنة من المسبّات من النوع الممتاز، ويخرج كالريح العتية ملوّحاً باصبعه بالتهديد والوعيد!

٤٠ أنات متفرقة!

- أن يقف واعظ في صدر كنيسة ويدعو الى التمسك باهداب الدين، ويحث على المشاركة في الطقوس، وينتقل بين فصول الانجيل ليستقي عِبَرَ الحياة، ويحرّض على الوفاق بين الكنّة والحماة وبين جيل الاباء وجيل البنين... ذلك جيد وحسن ونِعْمَ الواعظ!

- ولكن أنْ يهددهم بنار جهنم إن لم يصوموا ويصلوا، ويعدهم بخيرات الآخرة فقط، دون اعتبار لقيم هذه الحياة، أو أن يحفظهم في الخوف والضعف لأنهم أقلية، أو يحصّنهم من التلوث الخارجي بالتعصب والانطواء... فذلك فيه الموت!

- أنْ يقف خطيب في أعلى المنبر ويدعو الى الاستنارة بالشريعة وبسير الاولياء الصالحين والأئمة والنبيين، ويعد القانتين والقانتات بالجنة، وينهي عن المنكر والميسر والخمرة... ذلك من حقه وبارك الله به ونِعْمَ الخطيب!

- ولكن أنْ يتهم مواطنين آخرين من دين آخر، او ينسب اليهم جزافاً أنهم هم الذين يجرون امته الى العوائد الذميمة، او يولد الحقد والتزمت لدى مستمعيه... فذلك فيه الريبة!

- أنْ يبحث الوالدون عن عريس مناسب لابنتهم، ويشترطوا فيه الرجولة والجدية وأصالة الأصل والحال ومورداً شخصياً يعتمد

عليه في تكوين ذاته، وأن تشترط الفتاة في فارس احلامها عنفوان الشباب والتكافؤ الاجتماعي والثقافي وحفنة من تراب الحب الذهبية... ذلك حق وعدل وحكمة.

- ولكن ان تصرّ الوالدة الحنونة على أسبقية الذهب والأرصدة والسيارة وقطعة الأرض الجاهزة للبناء، ويصر الوالد العزيز على مصاهرة الأعليين، ويضربان صفحاً عن مشاعر ابنتهما وعن عمرها الذي يتقدم وخيباتها التي لم تعد تحصى، أوَ يرفض الثلاثة معاً كل من لا يستوفي المواصفات... فذلك بعضٌ مما يفسر عدد العوانس اللائذات بالصمت عندنا... ولربما الشرود هنا وهناك، ولاتَ ساعةَ مَنْدمِ!

- أنْ تُطالب المدارسُ باعطاء التربية الصالحة للنشء اضافة الى الرياضة والنشيد، وأن يدخل التعليم الديني في المناهج الرسمية للدراسة الى جانب جغرافية مثلث برمودا وحضر موت... ذلك مطلب مشروع في دولة ومجتمع مؤمنَين، باعتبار الدين عنصراً جوهرياً في تكوين الشخصية الانسانية والوطنية وحقاً اساسياً من حقوق الانسان.

- ولكن أن يطبّق هذا الحق على قسم من المواطنين دون القسم الآخر، ويخضع لمنطق الأكثرية والأقلية والدين الرسمي، فهذا تمييز يستحق اعادة النظر فيه على ضوء الدستور الذي يعترف لجميع المواطنين بذات الواجبات والحقوق.

ولكن هل يعفي ذلك كنيستنا من معالجة مشكلة "التعليم المسيحي" -في مراكز الكنائس وفي المدارس- في موقف موحّد. بوضع المناهج والكتب الرصينة والملائمة... ام نبقى نضرب اخماساً بأسداس أمام الأوراق الهجينة وهزالة المنهاج المقرر او اللاشيء...؟!

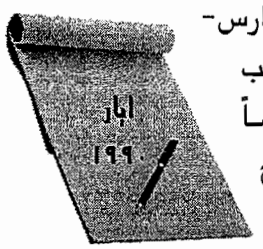

٤١ بقرة الشيخ

إجلسْ عند قدمي الشيوخ، قال ابن سيراخ، ومن كان منهم حكيماً فلازمه. في جعبتهم الف قصة وقصة، وكل قصة امثولة وعبرة، يستلونها كالنبال الجاهزة وقت الحاجة. لا تهمل كلامهم، يا بني، فانهم تعلموا من آبائهم، ومنهم تتعلم انت.

عند قدمي احدهم، قبل عام وبعض العام، سمعتُ هذه القصة: وجه اسمر حرثته اخاديد الايام، تتوسطه عينان سوداوان تلتمعان في عرينهما بين حاجبين ماردين وشاربين كثّين اختلطا بلحية متشابكة كحقل ادغال، ابتلع بياضُها سوادَها، فلم يترك منه سوى خطين متعرجين في زوايا الفم. قال وهو يكركر حبات سبحته وكأنه غائب في حسابات وراء الزمن:

يحكى انه في "السنة الثلجية" -ولا يذكر القدماء متى كانت- ماتت الزروع من شدة البرد، وجمدت بساتين الزيتون، وتركت للمواشي والبقر والحمير السائبة، والتجأ الناس الى دورهم الراقدة عند أقدام الجبل الأجرد يندبون حظهم. ثم جاء احدهم ليقول: ايها الناس ان حياتكم كلها تعتمد على هذه البساتين. فكيف تقطعون رزقكم بأيديكم؟... ويسري الكلام بين الناس، وفي مجالس الحي، في شمس الظهيرة الدافئة، وتتناقله الالسن حتى ينتهي الى اذني الشيخ. فيجمع هذا وجهاء القرية ويتداول معهم في امر البساتين. وبعد الاتكال على الله يقر الرأي بالاجماع على اعادة زرع البساتين والمحافظة عليها.

ويخرج "مؤتمر" الشيخ والوجهاء بثلاثة قرارات عملية لحماية البساتين من العبث:

١) تعيين حراس على البساتين.

٢) يخول الحارس ان يرمي بالرصاص كل حمار او عنزة او بقرة تتخطى حدود البستان، دون سؤال او جواب.

٣) تشكيل وفد الى الولاية لمراجعة الملاّكين اصحاب البساتين والمياه، يقول لهم: انتم، دافعوا عنا فقط لدى الوالي، اذا اقتضى الامر، والباقي علينا!

وحدث قضاء وقدراً، يقول الراوي، ان اول من تخطى حدود احد البساتين المحيطة بالقرية احاطة الحزام بالخصر، كانت بقرة الشيخ، ولانها بقرة الشيخ احترمها الحراس فلم يقتلوها، بل اوثقوها واقتادوها الى مجلس الشيخ مع توصية الجماعة بألاّ تعود الى فعلتها مرة اخرى. واستفسر الشيخ وسأل، يمنة ويسرة، ان كانت بقرته حقاً هي اول من تجتاز حدود البساتين بعد صدور القرار. ولما تحقق من ذلك أمر باقتياد البقرة الجانية الى القصاب لتذبح جزاء ما فعلت. ولكن اولاده -يؤيدهم نفر من المتزلفين والزبانية، كما في كل زمان- ما ان سمعوا بالنبأ حتى استشاطوا غضباً على الحراس واعترضوا: كيف تذبح بقرة الشيخ؟! أليس لها امتيازات على سائر البقر والحمير؟!

- بل تذبح كما أمرتُ، قال الشيخ كالحاكم العادل... انا الذي اصدرت القرار، واني لأحكم على نفسي قبل غيري...

من هالة
إلى أبيها العائد

٤٢

حبيبي بابا

كم انا مشتاقة اليك يا بابا. كم انا وماما متلهفتان الى عينيك يا بابا. اوه! ما أحلى كلمة "بابا" اقولها لك. لقد جمعت على شفتي مئات القبل. الوّنها واطرّزها واكورّها كحبات العنب وأمزجها بالسكر والعسل لاستقبلك بها يوم تعود وأطبعها، وهي تلتهب بشوقي، على شفتيك وعينيك، وعلى خدك الأيمن والأيسر، وعلى شعرك الذي قالت لي ماما انه اسود ومتموج، وعلى لحيتك وشاربيك كما اراك في الصورة المعلقة في صدر غرفتنا. هذه الصورة لولاها لما عرفتك يا بابا، لأني كنت في القماط يوم سافرت بعيداً ولم تعد الينا. هكذا كانت تسكتني ماما كلما سألتها عنك، الى ان جاءت منك رسالة، مرسوم عليها صليب احمر.

وكبرتُ يا بابا. وصار عمري عشر سنوات ودخلت المدرسة ونجحت هذا العام من الصف الرابع الى الخامس، وانا احتفظ بشهادتي في كنتور ماما لأريك اياها عندما تعود. كل مساء أصلي كي تعود. كما علّمتني ماما، وكل صباح أتخيلك تدق الباب.

قبل سنتين انتظرناك كثيراً، قالوا لنا ستأتي انت ورفاقك. لا تَسلْ عن الفرحة التي عمت يوم انتهت الحرب. الليل صار نهاراً. السماء اختلطت فيها النجوم بالاسهم النارية والعناقيد الملونة. الناس يطوفون الشوارع بالطبول والاغاني حتى الصباح. في التلفزيون راينا

جنوداً يطيّرون بيرياتهم في الهواء وهم يرقصون. جارتنا ام نادية مع بنات المحلة وشبابها عقدوا دبكة تحت مصباح الساحة امام بيت جدي. ماما كالمجنونة، كانت تهلهل في التلفون. اجراس الكنائس في منتصف الليل صارت تدق وتدق وتدق. جدتي قالت! سنصبغ البيت ونضع كاشي لاستقبال صباح. حبيبي بابا!... واشترى جدي بقرتين... وصرنا نحن الصغار، انا وأولاد عمي وبنات عماتي، نتدرب على الرقص لنرقص يوم قدومك.

وتأخرت...

وفجأة قال عمو صدام ان الاسرى سيعودون... هل حقاً سأرى بابا، يا ماما؟ هل سيعرفني؟ هل سيعرف أولاد عمي وعماتي واخوالي وخالتي الذين ولدوا في غيابه؟ أي فستان ألبس لاستقباله؟ كيف أسرح شعري؟

ووصلت الوجبة الأولى... والثانية... والثالثة... طبول... اهازيج... اعراس... كل القرية في عيد... والكل في انتظار... و... و... اوه! حبيبي بابا... بابا... بابا... دموع الفرح تخنقني... تقطع صوتي... حلم؟ حقيقة؟ هل حقاً بابا امامي، معي، يطوقني بذراعيه، يقبلني!!... اخيراً، بابا، اسألك لماذا ركعت على الأرض وقبلّت التراب عند نزولك من الباص...؟

٤٣ عند العرافة

- إنـي لا أحـب سـوى الرجـال الاقتحـاميين! أمـا الرجـال الملاطفون الذائبون امام النساء، ما أضجرهم! قد نرتـاح الـيهم بعـض الشيء، ولكن لا اكثر. هـل سـمعتِ بـامرأة فقـدت عقلهـا مـن اجـل ولـد "سكر وعسل"، لأنه كذلك فقط؟ أما انا فلم اسمع! الرجـل الاقتحـامي ملغوم بالاسرار، يفاجئكِ دوماً بمـا لا تتوقعينـه، قـوي الشـكيمة تعتمـد عليـه المـرأة وتحسـب لـه حسـابه. بينمـا يصـل بهـا الامـر مـع الرجـل الولهان، الخجول، المسالم، المستسلم ابداً الى ان تحقد عليه من شـدة السأم والرتابة وضعف الشخصية. فأرجوكِ، اذا ما وجـدتِ نموذجـاً مـن الطراز الذي اريد، ان ترسليه اليّ مخفوراً... وحالاً!

هزت العرّافة رأسها متحيرة من امرهن:

- ولكـن سـبقتُ ان انبأتُـكِ بسـعادة كبـرى مـع آتٍ مـن بعيـد. فعليك بالصبر وطول الأناة... دعيه يأتي اليكِ.

- لقد عيل صبري، وأريد حسم الموقف بسرعة.

- كلكن سواء. مستعجلات. كالصواريخ.

وَرَبَتَتْ العرافة على كتفها، وكأنهـا طفلـة بنـت اربـع سـنوات، تكفكف دموعها التي امتزجت بنبعَي منخريها:

- دعك الان واشربي عصيركِ بهدوء ريثما أنتهي من الزبائن.

واختفت ريتا وراء الستار الحاجز تتسمع الى الزبائن يستبصرون طالعهم ومستقبلهم عند اقدام العرافة، وهم يسردون عليها بهمس المتعبدين، قصص حياتهم وخفايا صدورهم، قصصاً تفوح منها رائحة العفونة والانتقام والجشع والاختلاس، وفلسفة العين بالعين والسن بالسن:

تجار ومستوردون وبارزون اختلطت هوياتهم وصاروا يتكلمون في عتمة الليل تحت غطاء اسمائهم، ويلتهمون كل ما يتحرك في السوق، فتلد ارانبهم ارانب، فتقضم زروع الفلاحين والفقراء. ازواج ضاقت بهم الدنيا مع سرير واحد، وسيارة واحدة، وامرأة واحدة -ثرثارة وبدينة وسليطة اللسان- فوضعوا أعينهم على أخرى مغناج، رشيقة، عسلية المذاق. زوجات مرميات بين أثاث المطبخ وثياب الغسيل، كيف يستَمِلن ازواجهن من جديد ويبعثن فيهم الحرارة... وإلا فالانتقام الزؤام! فتيات حائرات، لمن يقلن "نعم"، ولمن يقلن "لا". وعانس جاءها عرض يوم ١٣ من الشهر، وهي تتشاءم من الرقم ١٣. هل تجازف ام تنتظر القطار القادم... إذا ما قدم؟ آخر فوجئ صباحاً بسرقة دواليب سيارته، وهو يشك بأحدهم. هل يقتحم داره، ام يقتحم السوق السوداء ليشتريها صاغراً بستمئة واكثر للزوج، ام يقتحم مصرفاً للتعويض المباشر عن خسارته وعن كل الارتفاعات البلهوانية في الاسعار التي لا يردعها احد؟ سياسي صغير يريد الصعود ويريد استثمار موقعه لاستكمال داره وتأثيثها معاً على اكتاف هذا وذاك من "الغلابة". موظف مغمور يمد يده في الصندوق، وها قد أطبق عليه الفخ...

عالم مجنون اناني ضائع هذا الذي يمر عند العرافة، هو العالم الحقيقي المتخفي وراء الأقنعة. هوّة يحفرها كل بنفسه لنفسه ويريد حلاً... من العرافة قارئة الطالع والفنجان!

٤٤ حالة النعمة

١. "حالة النعمة" في معجم اللاهوت الكتابي هي حالة ابوينا الأولين ساعة وضعهما الله في الجنة إذ كان سبحانه وتعالى يتمشى بينهما محتضناً كتفيهما بحنان ودلال، في نزهات الصبح والعشاء، على زقزقة العصافير بين اشجار الفردوس وجداوله الرقراقة. ويوم كانت الطبيعة كلها، بذئابها وخرفانها وفهودها واسودها وحيواناتها كلها، تتقدم من ابينا آدم ليعطي لها اسماءها ومهامها، فتسمع صوته وتحتكم بأمره... ثم حدث ما حدث...

فجاء وقت يحرث فيه آدم الأرض فينثلم المحراث، ويسقي الأرض العطشى فتبتلع الشقوق الماء، وتجلب حواء الماء فتنكسر الجرة، وتجمع الحطب للموقد والموقد لا يرسل سوى الدخان.

٢. ثم تناول القاموس السياسي هذه المفردة اللاهوتية، فلّوث استخدامها، اذ صار يطلقها على رجال السياسة، كالنواب والوزراء او الرئيس في الفترة الأولى من ولايتهم، او إبان الحملة الانتخابية التي قذفت بهم الى سدة الحكم في الانظمة التي تُدعى ديمقراطية -أملا وقانا الله شر هذه الأنظمة الموبوءة وأبعدها عنا كالطاعون والهواء الأصفر. ففي هذه الفترة يتمتع المرشح او الرئيس المنتخب بحالة النعمة حقاً، اذ يجتر

خطاباته كالاسطوانة المبحوحة... فتصفق له الجماهير على ايقاع كل "كانَ" و"إنّ" و"سين" و"سوف". ويتكلم، فتلتقط وسائل الاعلام دُرَرَ لسانه، ويسجل المصورون هيئة شفاهه كلما ابتسم او ضحك او قهقه او تثاءب، وتعرضها مساء على المواطنين العزل في مستهل كل نشرة تلفزيونية. والكل ينتظرون منه ان ينزل القمر على الارض ويوزع المنّ والسلوى على بني اسرائيل... لا معارضة، لا عراقيل، لا شيء سوى العسل...

ثم تأتي المطبّات والوعود التي لم تنفذ، وتتناثر الاحلام، هذا اذا لم تنفضح الرشاوى والمحسوبيات والارصدة المنقولة وغير المنقولة... لتعود حالة النعمة الاولى الى خبر كان.

٣. اما حالة النعمة بالنسبة الى رجل الكنيسة، فيتذوقها في ايام كهنوته الاولى، ولربما في شهر عسل قد يمتد قليلاً بالنسبة الى المراتب الأعلى. انظر اليه يوم رسامته كيف يوزع بركاته بيد مفتوحة، كبائع تفاح بالمفرد والجملة، فيتلقفونها كثمار الجنة. يدك على طفلي يا أبونا، يا سيدنا. شرفنا بزيارة، بقدح بيرة. بتناول العشاء معنا...

ثم يأتي زمن العمل والتحقيق والحساب... ولكل واحد نموذج للراعي النموذجي، ولكل جماعة او فئة او فصيلة من المؤمنين والمؤمنات مجموعة من المطاليب والانتظارات الموقوفة، وطوبى لمن ينجح في الامتحان في اول دور... لا خسر حالة النعمة كما خسرها أبونا آدم في الجنة، وشُجبت عنه الثقة في البرلمان.

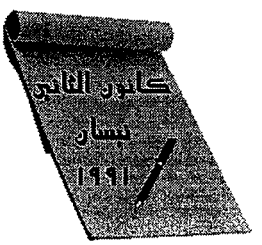

٤٥ أحلام الفقراء

الفقراء وحدهم يحلمون، لأن فاقد الشيء وحده يحلم بالحصول عليه، وبقدر عمق الفقر واتساعه يكون حلم الفقراء بسيطاً، لأنه يتشبّث، إذ ذاك، بالضروري الأعز... ولقد كثر الفقراء في أيامنا، حتى صاروا شعباً، وخرجوا الى وضح النهار يمدّون أيديهم الى ربهم في غابة الجشعين والمستغلّين والباعة المحترفين وتجار الحروب، وفي اتساع حاجاتهم تضاءلت احلامهم الى حد الكفّ واختنقت في عيونهم.

يحلم الفقير اليوم أن يشتري كيلو طحين ابيض من البقال ويدسّه كروح الحياة في طحين الوكيل الفاقد اللون والطعم والهوية، والذي يفاجيء ربة الاسرة بمحتوياته الغريبة والدخيلة كل مرة... ولكن العين بصيرة واليد قصيرة!.

يحلم ان يوّقع دفتره ويتسرح أخيراً بعد ١٢ سنة من إمرة الآمر وسخرة الضابط، ولا يعود من بعد الى هلهولة الموت وفرقعة الألغام وعجيج القاذفات، بل ينام آمناً بين زوجته وأطفاله.

يحلم ان يكّمل بناء البيت الذي بدأه قبل الحرب الثانية لأبنه المفقود منذ الحرب الأولى، ويحلم ان يعود ليرى البيت جاهزاً ويراه هو قبل ان يموت.

يحلم، بعد ٩ سنوات من الأسر وفقدان عمله ومعظم أحلامه السابقة في الحياة، يحلم بشيء واحد فقط: أن يلتقي ببنت الحلال، وأن تقبل بنت الحلال به زوجاً، ويقبل ابوها وامها به صهراً.

يحلم ان يستقر في بلد لا حرب فيه ولا تهديد حرب، يلقى فيه ما يكفي من الاوكسجين.

يحلم أن يعود الى قريته وبيته وحقله، بعد أن زحفه الخوف والرعب والغوغاء، هو وزوجته وأطفاله، الى الجبال، وتعرضهم لألف موت وجوع وهول.

يحلم -وهو الذي لا يفهم في السياسة شيئاً ولا في صفقات الحكام وطبخاتهم- أن يرفرف علم العراق وحده في جبالنا، ولا ترى عيناه "احتلال" الاميركان ودباباتهم.

تحلم المسكينة ان تذهب الى الكنيسة كملاذها الاخير، ولا يعيدها الكاهن صفر اليدين، من حفنة دقيق او حليب لأطفالها، او بضعة دنانير تسند اسرتها لبضعة ايام.

وتحلم زرقاء العينين ذات الأربع سنوات، وهي تناغي دميتها المبتورة اليدين، ان يشتري لها بابا نستلة كالتي كان يجلبها لها عند عودته من المدينة قبل "عاصفة الصحراء"... التي عصفت بكل الاحلام وضبّبت كل الرؤى.

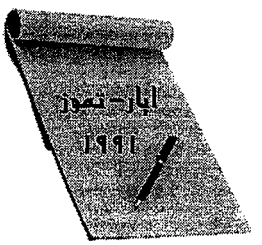

٤٦ عن الحمير والحملان

بما ان الكلمة المكتوبة هي ملك للجميع، وبما ان الفكرة اذا انطلقت، كالضبية إذا اندفعت وجرت، لا تعود، وبما ان السرقة الأدبية ليست جريمة يعاقب عليها القانون، وبما ان الصحفيين، استناداً الى ذلك، يسرقون ما طاب لهم من الزملاء ومن وكالات الأنباء والإنصات المباشر ومن الصحف الشقيقة... فقد سرقت حفنة -حفنة فقط- من الاسئلة الفضولية، أنقلها الى القراء الأكارم، مع شكري واعتذاري لواضعها، تعميماً للفائدة... إن وجدت:

سُئل الحمار يوماً: ما الذي تراه اكثر تكريماً لك، أن تجرّ المحراث وراءك، أم أن يُمتطى ظهرك؟

وبما ان الحمار حيوان غير ناطق بقي السؤال بلا جواب!

وسئل الحمل الوديع المسالم: ما الذي تفضّل، أن تموت جوعاً على باب سيدك، أم شهيداً بقذيفة في ساحة الحرب، ام بنيران النابالم ورذاذ الكيمياوي، ام بسكين الجزار؟

وبما ان الحمل مغلوب على امره وعاجز عن إبداء رأيه بما يفضّل او لا يفضّل، كان جوابه الوحيد: باع!

وسئل الانسان أبن آدم في الوطن العربي: هل تفضّل الموت اختناقاً من قلة الاوكسجين، ام بمورفين الوعود والمكارم والشطحات الخطابية في ملاحم القبيلة وعنتريات بني هلال في صحافة السلاطين؟

وحيث لا حول ولا قوة لمن تنادي، فقد بقي السؤال بلا جواب!

وسئل المواطن في جبل لبنان: إذا قُدِّر لك أن تموت، ما الذي تفضل، الموت بلا علاج في البيت، لتوفر لعيالك ما جمعته بعرق جبينك، ام الموت في المستشفى وتحميل عيالك أعباء الديون المترتبة عليك من "الخدمة الانسانية" التي نلتها، اضافة الى ما ترتب عليك من اجور مدارس اولادك وفساتين بناتك؟

وبما ان كلا الأمرين مرٌّ، فقد بقي السؤال بلا جواب!

وسئل الفقير الى ربه في العراق: ماذا تفضّل، أن توزع المساعدات التي تأتي باسم المعوزين والمنكوبين والجائعين والاطفال على البيوت، فيأخذها المحتاج دون ان يمرّغ كرامته على اعتاب المحسنين بمال غيرهم، ويرفضها غير المحتاج حقاً، ام ان يتصرف بها مستلموها او المستولون عليها على هواهم، او يبيعوها للتجار، وكأنها من أملاكهم الموروثة، فيشتريها من الأسواق مَن أتت بأسمائهم، أضعاف اضعاف أثمانها الأصلية؟

وبما ان السؤال لا يحتاج الى جواب، فقد ظل بلا جواب!

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

٤٧ أبونا شينا

الحبساء!

نوع من المخلوقات كنا نظنه من كائنات ما قبل التاريخ المنقرضة. ويا للمفاجأة عندما عثرنا على نموذج حي منه في الصيف الفائت، قرب غابة الأرز، في بلاد الأرز:

مدخل وادي قاديشا الشهير في تاريخ الكنيسة المارونية. وادي النسّاك والقديسين الذي أحصي فيه ٨٠٠ دير وقلاية. كهف منقور في الصخر ضائع بين اشجار الصنوبر والشربين، تسبقه معصرة مهجورة تربطها به درجات منحوتة في الحجر ايضاً. اربعة حجاج، ثلاثة منهم من وادي الرافدين، يدقون باباً واطئاً وينتظرون بترقب. لحظات ولكننا استطلناها. شيخ هرم يطلّ وكأنه قادم من العالم الآخر يفتح لنا. عينان غائرتان وسط وجه نسكي متجعد، ولكنهما صافيتان تتقدان بحياة خفية. لحية كثّة بيضاء كالثلج تتناقض مع الاسكيم الاسود الرهباني الذي يغطي راسه الأشيب. يقودنا الى معبده بخطى وئيدة تمسح الارض ببطء. معبد ضيّق عبق برائحة البخور والشموع المشتعلة تتزاحم فيه صور القديسين والقديسات. نركع. نصلي بصمت الى جانبه برهة، ثم ننهض... فيرحب بنا برقة ويعانق كلاً منا بحنان رجال الله. نتحادث... فيكلمنا بهدوء كالهمس... عن الوحدة التي يجب ان تجمعنا في المسيح: المسيح واحد... لا ندع أحداً يفصلنا بالتفاصيل. لا يجوز أن نقبل بالفرقة والتفرقة... نحن في لبنان

نتعاطف دائماً مع العراق، بين النهرين، لان فيه جذورنا الايمانية والكنسية.

أبونا شَيْنا -ويعني اسمه بالسريانية "سلام. أمان"- حبيس وادي قاديشا الوحيد، والثاني في لبنان، يعيش هنا منذ عشر سنوات. كان استاذاً للاهوت في جامعة الكسليك، قال دليلنا، يتقن الفرنسية، وقد درس في فرنسا. مارس الرسالة والكتابة. كان رئيس دير مار قزحيا، هناك في السفح المقابل. اما الان فلا يخرج من محبسته. حدود عالمه بحدود الحصن المسيّج الذي يحيط بها. يأتون اليه بالطعام من الدير القديم،ولا يأكل الا مرة واحدة في النهار. لا يذوق اللحم. يصلي كثيراً. يستقبل التائبين. يقصدونه من بعيد للاعتراف والاسترشاد والاستنارة. طلبنا اليه ان يصلي كي يعود السلام والامان الى العراق ويترسخ أبناؤه المسيحيون فيه ولا يهجروه... يستطيل الحديث ونحن نصغي اليه وكأنه النبي. صوت متهدج، مرتعش، عذب. عمره تجاوز الثمانين.

عند تحية الوداع همَّ بتقبيل أيدينا -وآخجلتاه!- فما كان منا إلا أن قبّلنا يده، نحن. يؤشر لي بيده رافضاً بابتسامة ألقت سلاحي من يدي عندما رأى كاميرتي مصوّبة اليه، وكان في نفسي أنَّ هذه الصورة، بالعدسة المكبّرة، لربما ستكون مطلوبة في يوم من الايام. كما قلت لزميلي ونحن نغادر الصومعة متأثرين، متأملين: من يدري، لعلنا نعايش قديسين ونحن نجهلهم!

أجل، هؤلاء يحملون العالم بصلاتهم وتأملاتهم ومجانية محبتهم لئلا يسقط في العبث واللامعقول. شهادة ونداء معاً لقيم الروح والسلام والأخاء في غابة التقاتل والتسلط والزيف والتهافت على المادة.

٤٨ ولو حفنة من التبن...!

السامري والمجروح الذي أسعفه على قارعة الطريق بين اورشليم واريحا، هل عادا فالتقيا بعد ان افترقا على باب الفندق؟ ماذا كانت ردة الفعل في اسرتيهما بعد الحادثة؟

في كتاب من اواخر القرن العشرين، لا أدري من أين استقى معلوماته، وجدت الجواب لفضولي، جواباً لا يخلو من الدعابة، ولكنه ممزوج بعبرة قد لا تصلح للفريسيين وعلماء الشريعة وعنصريي جنوب افريقيا:

بعد ايام غير يسيرة عاد السامري من سفره. وبينما كان ذات يوم عائداً من السوق الى بيته، أبصر على عتبة الدار عائلة غريبة في انتظاره، فسلّم ودفع الباب أمامه، مستفسراً باستغراب:

- أهلاً وسهلاً بالضيوف، ولكن ما الامر؟

نظر الرجل الغريب الى امرأته وقال بتأثر بالغ:

- هذا هو الرجل الذي حدثتك عنه. هذا هو السامري الذي خلّصني من الموت. ثم توجه الى مضيفه قائلاً: لقد جئنا عندكم بعد ان شكرنا الرب في هيكله. وارجوك ان تقبل مني هدية امتناني ومعرفتي لجميلك: قارورة الزيت هذه، وهذا الزق من الخمر. ثم اردف ووجهه نحو الارض خَجلاً، ارجوك ان تسامحني، فلقد كنتُ احتقر السَمَرَة سابقاً، اما الان فإني اعترف أن بينهم ايضاً يوجد ابناء حقيقيون لله.

ومدت المرأة ايضاً يدها في كيسها وأخرجت ثوباً صوفياً وقدمته للسامري قائلة:

- لقد اخبرني زوجي ان ثوبك تلطّخ بالدم والطين عندما حملته. فنسجت لك هذا الثوب الجديد بيدي. ارجو ان تقبله.

ثم تقدمت من زوجة السامري وطبعت قبلة على خديها، وتناولت شَدّة الخبز الرقيق الذي أعدته وقدّمتها لها قائلة:

- هنيئاً لك بهذا الزوج الطيب، أقبلي مني هذه البركة!

فاعترض السامري واجاب متلعثماً كمن يخاف ان يجرح شعور ضيوفه:

- ارجوكما لا تُرُدّا لي ما أنفقتهُ، فمن الطبيعي ان يهرع اولاد الله لنجدة من هم من اخوتهم في محنة، اني لم افعل سوى ما يمليه عليّ واجبي نحو أخي.

وفي هذه الأثناء كان الجميع قد جلسوا على بساط صوفي مزركش على الأرض، يستعيدون ظروف الحادثة المؤلمة التي جرت وقائعها في أحد الوديان الجرداء النازلة نحو اريحا. فتقدم صبي صغير باسطاً يديه المملوءتين قائلاً:

- ايها العم، لقد أسعفت والدي، وحملته على ظهر حمارك. انا صغير، لا أقوى على مساعدة الناس بعد، ولكني أستطيع أن أساهم في مساعدتهم كما فعل حمارك، هذه حفنة تبن وشعير له، شكراً لما فعل.

ويردف الراوي قائلاً: وفرح السامري بما سمع من اقوال، والحمارُ بما قُدّم له من تبن وشعير!

بطرس ويوحنا أمام مجلس الأمن

٤٩

ملاحظة: (اقرأ: كتاب اعمال الرسل ٤: ٥-٢٢)

وبعد سنة انعقد مجلس الامن في القصر الزجاجي، في العالم الجديد. وكان هناك شيوخ القانون الدولي، والكتبة، ورئيس الامن الدولي، وقيافا مستشاره التنفيذي، وسائر اعضاء وفود الدول الدائمة المصلحة، والدول الشكلية العضوية، في المجلس. واستدعوا بطرس ويوحنا ورفاقهما وسألوهم: "بأيّ حق، ومع من تواطأتم ففعلتم ذلك؟" -وكانوا يتهمونهم بأنهم لم يَدَعوا شعبهم كله يموت جوعاً من الحصار، كما كانوا قد قرروا له، وبأنه، رغم كل ما فعلوا، نهض على قدميه. وأدانوهم بأشياء أخر كثيرة، منها انهم لا يتعاونون مع الشرعية الدولية الجديدة القاضية بتجويع الفقراء لتبقى ايديهم دائماً ممدودة نحوهم، وبتجريد الصغار من سلاحهم ومواردهم، لئلا يضطرب التوازن بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، فيفقدوا هيمنتهم العسكرية والاقتصادية على العالم. حينئذ نهض بطرس وقد امتلأ من روح التمرد والمعارضة وقال: "سيادة الرئيس، ويا حضرات السيدات والسادة، إذا كنا نُسأل اليوم على الاحسان الى عليل كيف شفي، فاعلموا جميعاً، ولتعلم اسرائيل وسائر الدول العربية: ان ذلك قد تم باسم الانسانية التي انتم تضحون بها على مذبح اله النفط. فباسمها يقف هذا الانسان

الذي اسمه العراق امامكم مرفوع الرأس مطالباً اياكم بحقه في الحياة، مثلكم تماماً".

فلما رأى اعضاء المجلس جرأة بطرس ويوحنا واعتمادهما الاول على الذات والارض لإدامة الحياة، وعرفوا انهما ليسا واعظين في دار الأفتاء، او درويشين يجهلان اللعبة، تعجبوا. ثم اخرجوهما من المحفل، وتشاوروا وقالوا: "ماذا نصنع بهؤلاء؟ أنسوقهم الى محكمة العدل الدولية؟ ترى من يضمن لنا ولاء الحكام والمحامين؟ إن ما فعلنا بهم واضح لسكان اورشليم اجمعين. ولكن لئلا يتحول الرأي العام لدى الشعوب كلها الى جانبهم، لنمنع الجرائد والمجلات ووكالات الأنباء وصحابة الإذاعة والتلفزيون من التكلم عن هذه القضية".

ثم أمروا باحضارهما ورفاقهما، ونهوهم أن يقولوا شيئاً عما حلّ بأرضهم، وأطلقوهم خوفاً من الشعب. ولكن أصواتاً، هنا وهناك، لم يخنقها الدولار، أخذت تُسرّب ما حدث. فكان جميع الناس يتعجبون مما جرى، لأن الرجل الذي تم له هذا الشفاء كان قد تجاوز الأربعة آلاف من عمره.

٥٠ مسرح الساعة العاشرة

الجبال راقدة بخمول تحت غطاء سميك من الثلج الناصع البياض. لا يربك رهبته سوى رنين ناقوس يأتيك كسولاً من قعر الوادي ليهمس في اذنيك صلاة المساء. المدارج، الصخور، الطرقات، الشرفات، الأسطحة، الأخاديد... فقدت نتوءاتها وتساوت تضاريسها، كلها ثلج، ثلج، ثلج.

هذا هو سطح لبنان الأبيض في شباط، و"شباط خبّاط" يقول لك لبنانيو الجبل، ينقلك في نزواته الطفولية من الهدوء الى العاصفة، ومن شمس ناعسة الى زمهرير الجماد، من دون أي سابق انذار...

ويتسرب الليل الى زوايا صومعتي في الدير القديم. أوقد سراج الغاز الوهاج، أغلق لوحَي شبّاكي الخشبيين، ولا أعود أسمع في سكون الليل سوى قطرات المازوت تسقط متلاحقة كحبات المطر في الموقد الى جانبي و... حفيفَ قلمي على أوراقي...

ويسرح فكري الى ما رأيت وسمعت طيلة هذه الأيام... في بلد قيل عنه أنه بلد المبادرات والمتناقضات...

- أبدأ بساحة البرج، قلب بيروت القديم النابض بالحركة والحيوية، وهي اليوم حطام وركام فوق ركام. حتى نصب الحرية تهشمت قاعدته وتحطمت الذراع الواحدة وبقيت الشعلة ممدودة في الهواء. صورة مأساوية لمعارك ١٥ عاماً من الحرب الأهلية. في بلد يا ما كان ملجأً للحريات وموطناً للأقدام منذ رعمسيس الثاني الفرعوني، اول من خط أسمه على صخرة نهر الكلب، وحتى هذا

الجندي السوري الذي يوقفك على الحاجز عشر مرات بين الحازمية وظهر البيدر.

- ولكن الحياة أقوى ودعوة لبنان باقية: الفكر والتآلف والحرية أُنشُدُها في منابر الجامعات ومحارب الثقافة، ومجالس البحث والتحاور بين الاديان، وفي المؤتمرات والندوات. ويا ما أغزرها في لبنان! إرْقَ إليها في هذه الأديرة المتناثرة على سفوحٍ وقممٍ تخالها مدارج الجنة. مراقي الروح الى الاله. وخلايا حركة فكرية وفنية وكنسية كحركة الخميرة تخمّر عجنة لبنان الغد. نُقْها في قصائد "بونا يوحنا" الزجلية الإيقاعية عندما يغني لك بنفحة الروح على طريقة مار افرام: "يسوعْ يا زينة شبابُ الناصرة يا لفَرحتكْ كلّ الصبايا ناطرة".

- الحرية؟! إسْتنشِقْها ايضاً في "مسرح الساعة العاشرة". على مدى ساعتين يحملك على أجنحة المرح والفرفشة الى اجواء لبنان السياسية والاجتماعية، فيتناول بالنقد والتلميح اللاذع والخفيف والمبطن رجال الدولة والشأن. مع "كربيت" تكتشف مسرحية انتخابات نيابية اشترك فيها اموات مضى على رحيلهم عشر سنوات، وتحاور النواب "الشغّالين" عن شجون الماء والكهرباء وعن التلفونات الخرساء وتاريخ تحطيم آخر اشارة ضوئية في العاصمة، اسوة باليابان، وتستفسر من رئيس الوزراء عن أسعار البصل والحرير وعما يشتريه في طريق عودته من حج بيت الشام كل اسبوع. وتستوضح فخامة الرئيس عن رأيه في وزرائه وعن مدة "استضافة" القوات السورية "الشقيقة" على ارض لبنان "إنّ شاء الله مُطَوليْن؟!".

- في تلك الديار يسمون كل ذلك ديمقراطية، اما نحن فنسميه فوضى، ولا أحد من عباد الله الصالحين يشتري الفوضى بالديمقرطية! ولعله مجرد تنفيس عن الخاطر امام كأس، لا يقدّم ولا يؤخّر!

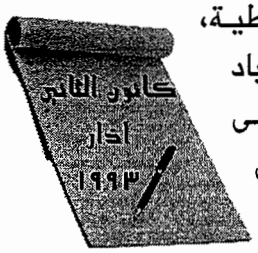

فلسفة التعاون

٥١

مرة أخرى يعيدني نظام "المساكنة" في فرنسا الى ورقة عتيقة تآلفتْ منذ زمن لا بأس به مع قصاصاتي المتلاطمة في ملف "الهمسات". وقبل أن آتي الى شأن "الورقة"، ترى هل تدري ما "المساكنة"؟ - "المساكنة"، يقول لك القاضي الشرعي، هي ان يسكن رجل وامرأة متزوجان سوية في بيت واحد يدعى "بيت الزوجية". أما لغة، "ساكن فلان فلاناً، يقول المنجد، تعني بكل بساطة سكن معه في دار واحدة. وقد لا تكون جمعتهما معاً سوى المصلحة المشتركة، ولا شيء سواها ... وهذا هو بيت القصيد!

بهذا المعنى الأخير تناول القاموس السياسي الفرنسي كلمة "المساكنة" ليصف بها حالة تآلف رئيس جمهورية من الحزب الاشتراكي مع رئيس وزراء من حزب يميني لحكم فرنسا. وقد حدث هذا مرتين في عام ١٩٨٦ وهذا العام ١٩٩٣، بفضل فوز اليمين في الانتخابات العامة. فما فرقته السياسة والمبادئ جمعته المصالح وتقاسم كعكة الحكم.

وبدافع من الغيرة -التي هي نار آكلة- فقدت احدى التكوينات المتطرفة آداب اللياقة، فنشرت في احدى صحفها تحقيقاً مصوراً بالاسود والابيض، في ستة مشاهد، عن "فلسفة التعاون":

في مشهد أول ترى حمارين حالكي السواد، مربوطين بحبل قصير في رقبتيهما، وقد أدارا ظهريهما الواحد للآخر، وركز كل منهما

نظـره واهتمامـه بكومـة مـن التـبنِ امامـه، وتحفـز كـل منهمـا للانقضاض... وتحت صورة الحمارين كتب: "من اجل حلّ مشاكلك..."

في مشهد ثان ترى الحمارين يجران على حبليهما فـي اتجـاه معاكس، وقد تصلب ذيلاهما علامة الجهد والتركيز، ولكن قصر الحبل الذي يجران عليـه بقـوة متساوية، جعلهما يتسمّران متحسرّين في الوسط على مسافة من كومتي التبن... وتحت صورة الحمارين هذه الكتابة: "لا تدع الانانية تستولي عليك"...

في مشهد ثالث يستمر الحماران في عملية جرّ الحبل بقوة وعناد، وضاعفا جهودهما الفردية حتى تلاصقت القوائم الأربع لكل منهمـا مـن شـدة الانـدفاع، وعـلا النهيـق وكـادت العيـون تنغلـق مـن محاجرهـا. ولكـن مـن دون جـدوى... وتحـت الصـورة تتمـة الكتابـة: "والا ظهرت بينكما المنافسة".

في مشهد رابع يعود الحماران الى رشدهما، ويكتشفان غباء محاولاتهما، فيتقابلان وجهاً لوجه هذه المرة، لدراسة المشكلة، وقد قعدا نادمين على قفاهما وتلامست اذانهما، علامة التعقل... وتحت الصورة الكتابة التالية: "فكرّ وستفهم أن...".

في مشهد خامس، ترى الحمارين في أخوّة وتفاهم تامين، واقفين جنباً الى جنب يلتهمان سوية بشهية من الكومة التي الى اليسار، تاركين كومة اليمين وراءهما، بينما تلاحظ ذيليهما يتراقصان علامة الرضى والهناء مع هذه الكتابة: "بالاتحاد القوة".

وفي المشهد السادس والاخير يتحول الصديقان الى كومة اليمين، بعد ان قضيا على الاولى تماماً... وتحت الصورة هذه الكتابة: "... وأن السعادة في التعاون".

قارئي الكريم أعد تركيب الكتابات بالتسلسل، وستحصل على "فلسفة" تفيدك في مآزق الحياة.

٥٢ إلى خرافي العزيزة

خرج الراعي ليرعي خرافه... فشرد البعض هنا، وانزوى البعض هناك، وتشتت الباقون في اطراف الحقل، كلٌّ منشغل في مرعاه... وغافلت بعض الفطائم الفتيّة والصغار يقظته وراحوا يتقافزون ويمرحون على حافة الجدول المجاور، خارج الجماعة، مما اعتبره تحرراً لا مبرر له.

ولما اقتربت الظهيرة وقبل ان يشتد الحر لملم الراعي قطيعه، ليس بغير مشقة، وعاد به الى الحظيرة. وبعد ساعة الورود، وبينما الامهات مستلقيات مع صغارهن بارتخاء حول البئر القديم، فتح الراعي فمه وخاطب قطيعه قائلاً:

يا خرافي العزيزة

كم أفضّل ان تبقوا نائمين في اماكنكم تجترون ما وضعتهُ في افواهكم! لا تتعبوا انفسكم في التفكير بما تأكلون او تشربون او تلبسون، فأنا سأفكر عنكم. انا لا ادع لكم حتى عناء القرار، فأنا سأتخذه عوضاً عنكم، وتأكدوا من اني اعرف مصلحتكم أفضل منكم. ان ما يقلقني حقاً هو ان تقلقوا انتم على شيء. لا ضير ان تترطب اماكنكم، فأنا سأتكفل بنظافتها. حتى "باع باع" لا تحتاجون الى قولها، لاني انا عارف بما تحتاجونه قبل ان تسألوه.

المراعـي؟ انـا سـأدور بكـم فـي الخصـيبة منهـا والرَيَّـة. واذا ما شـحّت، فسـأطوفُ حقـول الـدنيا وآتـيكم بمـا يوافـق معـداتكم. ضعوا ثقتكم فيّ أنا راعيكم، فـإن لـي الخبـرة الكافيـة والحـب الكـافي كـي لا اقـدم لكـم إلا "اللـبن" الـذي لا يفسـد هضـمكم. حتـى اللقمـة، لو استطعت، لمضـغتُها ووضـعتها فـي افـواهكم، كمـا تصـنع الأم مـع طفلها. ألستم أولادي الصغار!

كـم أخـافُ علـيكم مـن الـذئاب! لـذا رفعـتُ وأرفـعُ الاسـيجة حـواليكم عاليـةً، لـئلا تسـمعوا اصـواتها سـمعاً فترتـاعوا، وتنشـقّ صفوفكم. لا يدفعنكّم الفضـول الـى مـا وراء السـياج... ولا تهتمـوا بمـا تتعلمـون او تكشـفون عـن بـواطن الأمـور او مخـارج الأفكـار هنـاك. يكفيكم ما تسلمتُه من أبـي، وأبـي مـن جـدي، ونسـلّمُكم اياه. احـذروا صوت الغرباء، ولا يغرنّكم الأدعياء!

وإذا ما غبتُ عنكم، وطال غيابي... لا تقلقْ نفوسُكم، ثقوا بأني حيثما كنتُ، فأنا في شأنٍ يخصكم...

وأشياء أخرى كثيرة تلاها عليهم وهم ساكتون...

ولما أتم كلامه اجال الطرف فيهم، فـرآهم يجتـرون واجمـين، فظن انهم ينصتون. ثم ختم قائلاً:

- أفهمتم هذا كله؟

فأجابوه بصوت واحد قائلين: باع... باع...!

من غير المعقول

٥٣

من غير المعقول أن يستدير راكب السوبر الابيض ابو العقال والكوفية البيضاء وسط الشارع بكل أريحية وخيلاء، ويعرقل السير مطمئناً، بينما يدير له شرطي المرور ظهره... خوفاً من أن يكون من الأكابر!

من غير المعقول أن يبقى أولادي المراهقون مستيقظين ساهرين حتى الرابعة صباحاً امام شاشة قناة الشباب!

من غير المعقول أن يموت طفل عراقي واحد، لا لسبب سوى نقص في الدواء او الغذاء، فرضه السيد بوش وخلفه كلنتون واعوانهما "باسم حقوق الانسان" على شعب لا حول له ولا قوة!

من غير المعقول ان يدخن زيدّ من الناسِ علبة او علبتين يومياً من سكاير "أسبين"، ويتشكى امام القاصي والداني من دخله المحدود، ثم يرسل امرأته براحة بال لتطلب مساعدة من الكنيسة!

من غير المعقول ان يراجع المواطن سبعة مرات دائرة المرور لاسترجاع اجازته المحجوزة بسبب برهة توقف امام كراج، فيقال له كل مرة: "ماكو وصولات... تعال بعد اسبوع"... وتتلاحق الاسابيع والوصولات لم تُطبع!

من غير المعقول أن يمسك رجل واحد بيده الواحدة -حتى وإن كان بدرجة أسقف- كل السلطات الروحية والإدارية والتشريعية والتنفيذية في ولايته، ولا يكون له حساب يؤديه سوى أمام نفسه...!

من غير المعقول ان يستدين ابو صباح كذا الف دينار من هنا، وكذا الف من هناك، ليزوج ابنه صباح في أوسع قاعات المدينة لتستوعب مدعويه وعشيرته، شرباً وعشاء، على أنغام فرقة غربية وأخرى شرقية بالطبل والزمارة... فلا يبدو أقل من غيره، بل يباهي طبقة الاثرياء، كسراً للحصار الجائر...!

من غير المعقول ان يستورد العرب صغار الجمال من استراليا، وفسائل النخيل من فرنسا او اسبانيا، والدشداشات من الصين... وهم اهلها الأصليون!

ومن غير المعقول ان يقبل اساتذة اللغة الانكليزية في جامعة الموصل ان تكتب كلمة *Univercity* عوض *University* على اللوحات المرورية في التقاطعات والشوارع المؤدية الى جامعتهم!

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته!

٥٤ حوار ساخن على باب الجنة

كانت السيارة تنهب الأرض بنا نهباً نحن الاثنين، وقد تركنا بوابة بغداد وراءنا منذ مدة باتجاه الشمال، ونحن نتجانب أطراف الحديث. هو بلباس جندي بسيط عائد الى ذويه في إجازة -وقد أعلمني لاحقاً بأنه ضابط برتبة رفيعة، وان خلت اكتافه من نجمات رتبته- وأنا بلباس سائق عائد الى ذويه بعد رحلة عمل -واعلمته بهويتي، وإن خلّتْ أكتافي من النجمات-. وسر باصطحابي إياه كي يلقي علي حزماً من الاسئلة الموقوفة حول الصوم والصلاة عندنا، وحول الحلال والحرام، والخمرة والخنزير، والجنة والنار... وغيرها وغيرها. وسخن الحديث:

- هل الانجيل منزل؟

- بالتأكيد ليس الانجيل منزلاً بمعنى انه نسخة عن نموذج في السماء، ولكننا نؤمن بأنه كلام الله ورسالته على يد السيد المسيح، كتب من خلال الخبرة الايمانية للحواريين والجماعة المسيحية الأولى.

- أترى! هذا هو الفرق بيننا. كتابنا هو كتاب الله مباشرة. والدين الذي يحمله هو الدين الحق، لأنه دين الله. لذا يجب ارغام جميع المسيحيين واليهود والخلق اجمعين باعتناقه، وإلا...

- وإلا ماذا؟

وإلا ماتوا كفاراً...

ورأيت اني انا ورفيقي لا نتكلم اللغة عينها، فغيرت التكتيك وقلت:

- طيب، وما هو مصير الكفار؟

- مصيرهم جهنم والنار.

- وماذا بعد النار؟

- وبئس المصير!

فنظرت اليه بابتسامة لا تخلو من الدعابة، وقلت:

- يا أخي دعهم وبئس المصير! لماذا انت خابص نفسك لادخالهم الجنة بالقوة... فلو قبلنا بحق هذا الدين باستخدام القوة لادخال الناس فيه، وفرض شريعته فرضاً، لوجب الاعتراف بهذا الحق للأديان الأخرى ايضاً. ولو فعلنا لوقعنا في مجتمع كله سيوف مشرعة. أَوَنكونَ أكثر حكمة وحرصاً من رب العالمين؟... عمر المسيحية الفا سنة. والاسلام قارب المئة الرابعة عشرة، واليهودية من قبلنا كلينا تناهز الاربعة آلاف... فلو أراد الله ديناً واحداً دون سواه، لفعل ذلك بنفسه دون الحاجة الى سيوفنا.

فقد رفيقي براهينه، وأصر على قوله. فقلت مازحاً:

- أتعرف؟ ان للجنة باباً واحداً فقط، وسنلتقي كلانا على عتبة الباب نفسه... واستلحقت نفسي مضيفاً: إن شاء الله... شريطة ان تقودنا اليه اعمالنا الصالحة. في انتظار ذلك اليوم، لننظر الى ما يوحدنا -وهو كثير- لا فقط الى ما يفصلنا، لنأخذ الواحد من الآخر كل ما هو خير وايجابي، ولنبقَ منفتحين الى بعضنا البعض ومتضامنين كمؤمنين بالاله الواحد، وكمواطنين.

وكنا قد بلغنا مشارف بيجي... وبالرغم من سخونة هذا الحوار على باب الجنة، وقبل ان يتركني رفيقي دعاني الى تناول الغداء معه في داره.

٥٥ حكاية شهر شباط

أخيراً وصل تقويم دار الكتاب المقدس الأزرق الصغير الذي صار جزءاً مما ننتظره في مطلع كل عام... ولكن أشهر هذا التقويم لعام ١٩٩٤ كانت احد عشر شهراً فقط! ولدى التحري ظهر ان الشهر الغائب كان شهر شباط... وقيل ان عبقرياً اقتلع ورقة شباط من كافة النسخ الواردة بتهمة انها تحمل صورة طفل جالس يبكي امام أنقاض بيت محطم بقذائف احدى الحروب... والى جانب الصورة العبارة الانجيلية التالية: "أحبوا أعداءكم وصلّوا من أجل مضطهديكم"!.

هل تريدوني أن اصدق هذه الحكاية؟ - طبعاً لا، والف لا...

فَرُحْتُ أبحث عن السبب: هل ترى حدث حادث سوء "للرقيب" في شهر شباط، فلم يعد يريد السماع باسمه؟ هل ان شهر شباط قليل الأيام الى حد لا يستحق الذكر من بعدُ؟ أم صدر قرار جديد من مجلس الامن بحذف شهر شباط من السنة؟ أم، كما قيل، اعتبرت الآية الانجيلية المصاحبة للصورة، بكل بساطة، آية خنوعية استسلامية، فاقتُلعت حفاظاً لمعنوياتنا؟!

قد تكون غيرة الأخ كغيرة حراس السواحل في كمبوديا أيام لاجئي القوارب، حين كانوا يرمونهم في البحر. ولكن دعوني أشكره باسمكم، لانه اتاح لنا ان نتذكر احد التعاليم الكبرى للبشرية التي كسر بها المسيح طوق التعاليم القديمة في اقتلاع الحقد وحب الانتقام من قلوب الناس، حتى تجاه الاعداء، وانتزاع غريزة تحطيم الخصوم

واغتيال كل من لا يوافقنا في الرأي... وهذا شيء يختلف عن الرضوخ والخنوع للظلم... بل هو دعوة الى تعبئة كل القوة التي في داخل الانسان للمقاومة والصمود ولتجريد الخصم من السلاح.

سل المهاتما غاندي، فانه يعرف شيئاً عن ذلك!

أما أن يحمل الإنجيل تعاليم ومبادئ صعبة الهضم، فشأن لا يختلف فيه اثنان، ولا يسهّل امور الذين يودون لو انتشلوا منه كل ما لا يروقهم... وإلا للزم اعادة تركيبه من جديد. وهذا يذكرني بجارتنا العجوز، رحمها الله، عندما بادرتني يوماً بعد معركة مع كنّتها: - الحق كله على القسان. فمنذ اليوم الأول من الزواج يقرأون على رأسهم هذا الانجيل: "ويترك الرجل اباه وامه ويلزم امرأته". انهم يحرّضون النسوان!

- ولكن هذا نص الانجيل، لا يمكن تغييره.

- فأجابت بانزعاج وعصبية: فليقرأونه، على الاقل، بالسريانية!

قرأت صباح هذا اليوم قولاً مأثوراً: "اذا كان المؤمنون يؤمنون بشيء، ويفعلون خلافه، فما الفرق بينهم وبين من لا يؤمنون؟".

التقاليد

٥٦

لكل بلد تقاليده التي يعتز بها لانها جزء من تراثه القومي ومخزونه الانتروبولوجي (ولغير العارفين يقول القاموس ان الانتروبولوجيا هي علم ما يتعلق بطبائع الانسان).

فطبيعة الانسان البلجيكي مثلاً وتقاليده ان يتناول عشاء خفيفاً يتكون من صحن زلطة بالزيت، ومن شوربة تُستخرج من اكياس بحجم الكف جاهزة، تضاف اليها شريحة رقيقة من اللحم البارد الجاهز تبصر النور من خلالها، تتأنق في أكلها بالشوكة والسكين. ويُختم العشاء بقليل من الجبن المعفّن او غير المعفّن -ولهم منهما بضع عشرات من الأنواع- ويتناول البلاجكة عشاءهم في السادسة والنصف، سواء غربت الشمس في الرابعة والنصف شتاء، ام كانت في صدر السماء حتى العاشرة صيفاً.

وطبيعة الانسان العراقي مثلاً وتقاليده، كلما كان على مزاجه، او اراد ان يفرج عن همومه، او طرأت عليه مناسبة -ولربما كان كل مساء في احدى هذه الحالات- ان ترابط الزوجة وبناتها في المطبخ لخدمة الذكور ويتجندن لتجهيز عدة انواع من الزلطات، واللبلبي، والحمّص بطحيني، والبابا غنوج، والباقلاء المسلوقة، والخيار بشرائح دائرية او بقصات طويلة مثلثة الزوايا، وشيء من اللحم المشوي او المسلوق، والطرشيات بأشكالها، وغيرها من المقبلات...

ثم يُنقل الحاصل الى غرفة الجلوس حيث نُصبت الأقداح تنتظر الخير يسكب فيها مثنى وثلاثاً. وتحتد الاحاديث، وتتشابك الأصوات... والاناث ينتظرن باعجاب تارة وبصبر واستسلام احياناً متى تُرفع الجلسة ليضعن طعام العشاء، ويجب ان يكون دوماً حاراً ثقيلاً ولذيذاً ومتنوعاً ووفيراً يشبع العين، بل فائضاً يخزي البخيل. وتكفي خمس دقائق لالتهام كل شيء، وتكون الساعة قد تجاوزت منتصف الليل لربما بكثير، وقد تفرض تقاليد بعض العشائر ان تأكل النساء من فضلات الرجال.

اما الحصار فلا تسلني عنه، أَوَيعيش المرء مرتين؟!

ومن تقاليد الفرنسيين مثلاً عندما يجدون شيئاً ضائعاً يحملونه الى دائرة المفقودات لقاء وصل وتاريخ يراجع فيه. وتقول الصحيفة التي انتشلت منها هذه المعلومة ان المدة هي ثلاثة اشهر لمعاطف الفرو والصوفيات والمفاتيح والكفوف وما أشبهها، وثلاث سنوات لِلْحُلى والسندات المالية والمواد الثمينة الاخرى، وستة اشهر لما لا يدخل في هاتين الحالتين، واذا تجاوزت المدة ولم يحضر الصاحب، فواجد الشيء يصبح صاحبه لقاء رسم معين.

ومن التقاليد الجديدة لابناء العشائر عندنا ان يتسلق احدهم سياج دارك ليلاً، او عندما تكون منهمكاً بمشاهدة انطونيلا، ويحلّ تايرات سيارتك وبطاريتها ومسجلها، هذا اذا لم يسقها كلها كالنعجة الوادعة، لا الى دائرة المفقودات، بل الى الجزار والتفليش، فيضطرك انت وزوجتك وجيرانك ان تبقوا في انذار وتمسكوا خفارة ليلية بالتناوب، لئلا تلدَغوا من جحر مرتين.

٥٧ فرعون والضربات العشر

فَرْعَنَ فَرْعَنةً الرجلُ: تكبّر، يقول قاموس المنجد. وتَفَرْعَنَ: تخلّق بأخلاق الفراعنة. وتَفَرْعَنَ فلان علينا: طغى وتجبّر! وهكذا يبقى اسم "فرعون" -وفعل تَفَرْعَنَ المشتق منه- رمز الصلف والظلم والطغيان!.

ولذلك قصة طريفة يرقى تاريخها الى فجر النبوة مع موسى عليه السلام واخيه هارون رضي الله عنه:

موسى يتقدم من فرعون ذلك الزمان ويستأذنه باطلاق شعبه. ولكن فرعون يأبى التخلي عن يدٍ عاملةٍ بخسة طالما سخرها لبناء قصوره وقبور عائلته المالكة وتنفيذ مخططاته الاستعمارية المشبوهة. عشر مرات يصعد موسى درجات عرش فرعون مستجيراً، وعشر مرات "يثقل قلب فرعون ويأبى ان يطلق الشعب". وعشر مرات ايضاً تنقلب عصا موسى وهارون ويلاً وضربات على ارض فرعون وآل فرعون، وبعد كل ضربة يراوغ فرعون ويضع شروطاً جديدة كي يرفع الحصار عن الشعب العبراني، ولا يفعل!

لو قيل لكم ان فرعون هذا الزمان يدعى بوش وكلينتون وميجر مثلاً، فهل تصدقون؟ أليس أن "الفرعنة" و"التفرعن" ينطبقان عليهم؟ مع فارق بسيط وهو ان "الضربات" لا تصيب اليوم شعب الفراعنة، بل شعب العراق، وان "ضربات" العراق تجاوزت العشرة!

لقد لوّثوا مياهنا بسموم قنابلهم ومرّغوا بالطين سدودنا وشوارعنا. شرّدوا شبابنا على طرقات الدنيا هائمين على وجوههم. فرضوا الحصار على ابوابنا لئلا تردنا المبيدات، فصعدت الينا الجرذان والنمل والبق والذباب، مثل هذا الذي اجتاح بيوتنا في مطلع هذا الشتاء. ولو لا توسط اهل الخير من الناس لقطعوا عنا وعن بهائمنا تماماً كل غذاء ودواء. ولكن شحتهما وارتفاع ثمنهما، حتى في الاسواق البيضاء، وتدهور دينارنا العزيز، تجعل المرض والموت وسوء التغذية منجلاً يحصد قبل موسم الحصاد. قطعوا عنا الكهرباء وارادونا في ظلام "لا يبصر الأخ أخاه" من الانانية والجشع والربح العربيد والعصبية القبلية والسلفية والدينية... والأنكى انهم فرضوا علينا حصاراً ثقافياً وعلمياً يندى له جبين الجهلة، فمنعوا عنا الكتاب والمجلة والسفر في قطار "المتحضرين"... معهم. كما كان يفعل عنصريو جنوب افريقيا قبل مانديلا.

ما جريرتُنا؟ -أننا دخلنا مخدع السلطان!- ولكننا خرجنا منه منذ زمان! - هذا لا يكفي، قالوا، يجب ان نحطم كل اسلحتكم الفتاكة والبعيدة المدى، ونضع مراقبة، ليل نهار، على برامجكم... وتدفعوا لنا تكاليف اتعابنا وتذاكر سفرنا مجيئاً وإياباً... ثم نطلق سراحكم.

ونقبل على مضض، هذه وغيرها، من اجل حياة شعبنا. ولكن "قلب فرعون يثقل" ايضاً وايضاً، ويأبى ان يفك الحصار، ويتمادى في المراوغات والمناورات...

- اعترفوا بشيخ القبيلة جاراً معززاً مكرماً، وبأوتاد خيمته حدوداً آمنة بينكما، وأعيدوا اليه عبيده... وسنخلي سبيلكم!

فصدّقناهم، وهذا ايضاً فعلناه من اجل عيون أطفالنا... ولكن رينكو لا يريد ان يتفاهم! أية فقرات جديدة اضافية يعدّون لنا غداً؟ ان نغيرّ نظام نهوضنا من النوم صباحاً؟ أن نشتري الزبدة من الربان حرقيل؟ ان يستبدل أثرياؤنا سياراتهم اليابانية بأخرى امريكية؟ ... ام ماذا؟

اضحك مع "الفكر المسيحي"!

(مع العدد الأول بعد التسليم)

٥٨

عندما تصاب بعسر الهضم، فإنك تلجأ الى "ملـيِّن" يسهّل عليك التعامل مع الحياة من جديد، ويعيد اليك لذة العيش مع الكائنات العاقلة. وعندما لجأتُ الى شيخ من معارفي، لوت السنون كاهليه بتجارب الحياة، قال لي بجدّية أبقراط الحكيم:

- اليك هذه الوصفة السحرية: إرفعْ ساقيك الى أعلى وأنت مستلق على ظهرك، ثم أخفضهما بتؤدة حتى الأرض عدة مرات... فَيُفَكّ عنك الحصار!

ورافق قوله بابتسامة تبعث فيك الثقة بالنفس... ثم أسرع مستطرداً: إذا لم تؤمن بهذا، فأشير عليك بصحن من العدس الأصفر الحار قبل النوم.

ضممت هاتين الوصفتين في يدي مع الحبّات الخمرية التي أسعفني بها صديقي الدكتور على عجل، وأنا اضحك في سري لأني، في الحقيقة، لم أكن أطلب النجدة لي، بل لزملائي القراء خشية ان يصابوا بعسر الهضم لدسامة وجدّية هذا العدد الأول من عام ١٩٩٥. فرحت أبحث عمّا يفرج أساريرهم. فوقعت على قصاصات كنت قد سجلت عليها بعض الأخطاء المطبعية المرحة التي سقطت سهواً -لا تعمّداً- في أعمدة "الفكر المسيحي" عبر مسيرتها، وقد غفل حتى المنقحون عن بعضها. فإذا أُصبتَ بما أُصبتُ، أنصحك أن تقرأ ما يلي وأنت مستلق على ظهرك وساقاك الى الأعلى في عملية هبوط وصعود:

* في مقال عن الدينونة الأخيرة، ورد ما يلي: في مساء حياتنا سيسمعنا الرب هذه الكلكان: كنت جائعاً فأطعمتموني.../ والصحيح سيسمعنا هذه "الكلمات"... الخ.

* في تقرير عن مؤتمر ما، ورد ما يلي: وأحاط التقرير بالأمينات/ والصحيح: وأحاط التقرير "بالامنيات"... الخ.

* في قصة قصيرة، ورد ما يلي: استلقيتُ على كرسي لأستمع الى شيء من الموسيقى الحالجة/ والصحيح: الموسيقى "الحالمة" ... الخ.

* في خبر عن البابا يوحنا بولس الثاني، ورد ما يلي: اصدر البابا يوحنا بولس الثاني رسالة عامة، هي السابعة في حريته/ والصحيح هي السابعة في "حبريته".

* في مقال تربوي، ورد ما يلي: وهناك من هم في مرحلة دقيقة من حيلتهم.../ والصحيح: من "حياتهم"... الخ.

* وفي مقال عن الكهنة، ورد ما يلي: ان دعوتنا ككهنة تقتضي منّا حيلة عميقة.../ والصحيح: تقتضي منا "حياة" عميقة... الخ.

* وفي حديث حول العلاقات، ورد ما يلي: والمكان الملائم للقاءاتهم المتوترة هو.../ والصحيح: للقاءاتهم "المتواترة"... الخ.

* وفي تعليق على صورة لزيارة بطاركة الشرق، ورد ما يلي: بطارية الشرق/ والصحيح: "بطاركة الشرق".

* في خبر عن الدورة اللاهوتية، ورد ما يلي: الأب (فلان) مدرس اللاهوت الحلقي، والصحيح: مدرس اللاهوت الخُلقي...

* وفي اشارة الى خبر مؤلم، ورد ما يلي: وينتج جحا.../ والصحيح: وينتج "جرحاً"... الخ.

* وفي حديث عن أنصار المجلة، ورد ما يلي: ورهط كبير من اصدقاء "الكر المسيحي".../ والصحيح: من اصدقاء "الفكر المسيحي ... الخ.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

٥٩ همموم مخنوقة

الانسان يبقى دائماً هذا الكائن الذي يكبر في عين نفسه كلّما حقق حلماً من أحلامه!... ولكن هل كان من أحلام صديقي، هذا الذي التهم من الكتب والفلسفة أكثر مما التهم من حبّ الشمس في أمسيات الشتاء، أن يجلس في دكان ضئيل واطئ يبيع الحلوى للصغار وبعض اللوازم الفقيرة لنساء الحي؟! أم هذا ما جناه الحصار عليه وعلى أمثاله!

قامة فارعة، ابتسامة عريضة لا تفارق زاوية فمه اليسرى. عينان سوداوان تلمعان ذكاءً مطعّماً بالدهاء. اختار التعليم مهنة، واستهواه عالم الفكر والنظريات. فكّر، زمناً، أن باستطاعته تغيير وجه الأرض، وها ان الدهر يزجّه في صراعاته من اجل لقمة العيش، ككل الكادحين الذين سبقوه.

في صدره هموم مخنوقة... استيقظ أحدها ذات يوم على إثر حادثة طريفة وقعت له مع أحد القسس الطيبين، إذ بادره لحراسة سيارته ريثما ينتهي من مراسيمه في الكنيسة المجاورة. فلقد أطلّ القس بوجهه الباش على صديقه صاحب الدكان، مما أدخل العزاء عليه بعد تعب النهار، كما جاء في قصاصة بعث بها اليّ من دكانه أنقلها بدعابتها التي تمزج التمرّد بالطيبة، وتخفي بين طياتها أكثر مما تفصح، وظنّ، لأول وهلة، أنه آتٍ ليدعوه الى محاضرة تلقى في الكنيسة المقابلة. ولكنه فوجئ بالقس يطلب اليه حراسة سيارته

الفخمة! ولما كان صاحب الدكان قد اعتاد "بلع" مثل هذه المواقف التي توصله الى حدّ إطلاق النار على حدّ تعبيره، فقد أطلق النار فعلاً على القس المسالم!!

وتستطرد القصاصة الجريئة: "يا ليت "أبونا" يعلم أن صاحبه قد ضحّى بالتعامل مع مرتادي الكنيسة لفترة طويلة بسبب رفضه، في وقت سابق، حراسة سيارة رئيس ديني رفيع جاء بكل عظمته ليبارك ابناءه الجائعين الى الخبز والنعمة، وقد أتاهم فعلاً بكثير من البركات، ولا شيء من الخبز. يومذاك ايضاً طلب اليه ان "يتشرف" بحراسة السيارة... فرفض منفجراً أن يكون مجرد حارس لسيارات الكبار! ولكن عقوبة صدرت بحق المارد وهي منع الاطفال من زيارة دكان الشيطان. غير ان تسلّل الصغار ما عتّم أن أفسد الحصار...

كلمة واحدة أضيفها الى قصاصة صديقي بائع الحلوى: لولاك فيلسوفاً ومتمرّداً بجلد بقّال تطلق الكلمات" كما غيرك "يطلق النار"، وتقهقه لتخفف من رعبها، لطلبتُ لذلك القس الطيب ولك سيارة الاسعاف او شرطة النجدة!

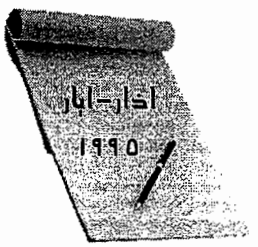

عمر الخيام يأبى ان يكون شاعرا

٦٠

يُحكى ان والياً لسمرقند، في ايام جنكيز خان، يدعى نظام الملك، أَوْلَمَ وليمة في عيد ميلاده، فدعا اليها وجوه ولايته وأفخاذها وكبار معاونيه وحملة بيارقه وجمعاً كبيراً من منفذي توجيهاته وسُعاته ومتزلفيه، وبعضاً من رجال الدين من الديانات السماوية الثلاث.

وكان لما فرغ المدعوون من لذائذ الطعام والشراب، وبسط الوالي يديه للنادل فاغتسل في الطست الفضي، تنحنح قليلاً واعتدل في مجلسه بين الوسائد الناعمة، ثم شمل جلساءه بنظرة رضى واستحسان متباطئة. وبعد برهة صمت شرع الوالي بالدعاء والتكبير والثناء على عظمة السلطان وأفضاله، وتهدّج صوته وهو يحثّ المدعوين على تذكير الرعية بواجب إمداد صندوق السلطان العادل للدفاع عن اركان الدولة. ثم صفق بيديه المرصعتين بالخواتم النادرة، فدخل اربعة سودانيين يحملون كعكة كبرج بابل تكرم بها السلطان للوالي بمناسبة عيد ميلاده الميمون. فعلا الهتاف والتصفيق.

ويقال ان الوالي دعا من بين من دعا الى الوليمة نفراً من الشعراء والصعاليك، وكان من بينهم عمر الخيام. وكان كل شاعر ينازل رفيقه بقصيدة تعدّد مناقب الوالي، وتمتدح حكمته وعدله ورجاحة عقله واتساع عبقريته، وتضفي عليه صفات الاولياء والصحابة. وكان الوالي في شدة كرمه واعجابه يغدق على كل شاعر ملء شدقيه ذهباً.

ويقول الراوي انه لما جاء دور عمر الخيام لَجم فَمه وعَقد لسانه وخرج رافضاً المنازلة المأجورة.

وقيل ان اكثر من شاعر اختنق لشدة ما فتح فمه لاحتواء اكبر كمية من الذهب!

اما أنا فتذكرت مقولة صديق حكيم لي عندما طُلب إليه مساءً ان يكتب قصيدة على البحر الطويل في السلام وعبثية الخصام، تكون جاهزة للطبع صباح اليوم التالي، وهذه المقولة هي: لا الوحي يهبط عند الطلب، ولا القصيدة تخرج من قلب الشاعر كما تخرج البرمجة من جعبة الكومبيوتر!

في قاعة القديسة بربارة

٦١

من الناس من نلتقي بهم مرة واحدة، فيأخذ ذلك اللقاء حجم الحدث في حياتك، فتبقى معالمه شاخصة أمامك، وكأنها وقعت البارحة... ذلك ان بؤبؤ قلبك التقطها لا عيناك فقط. هكذا لقائي به في قاعة القديسة بربارة في جامعة لوفان البلجيكية قبل ١٧ عاماً:

تزاحم الطلاب والطالبات وضاقت بهم المقاعد الخشبية، حتى احتل البعض شرفات النوافذ وافترش البعض الآخر مدارج القاعة الدائرية، وعلا الهرج والمرج... ثم دوت فجأة زخة طويلة من التصفيق، سرعان ما تحولت الى إيقاع بالأكف: سبعيني ضئيل القامة بثوب كهنوتي أسود بسيط، وكأنه كاهن ريفي جاء تواً من حقل الذرة، لا يميزه سوى صليب خشبي أجرد يتدلى على صدره بخيط أسود خشن. وجه كروي واسع تحزّه التجاعيد، ولكنه غاية في الطيبة. تقدم من المنصة بخطى وئيدة وكأنه يجرّ احدى قدميه جراً، ورفع يديه المتشابكتين بالتحية، والابتسامة لا تفارق شفتيه... ثم شرع يتحدث بفرنسية ذات لكنة عن زيارته الأخيرة لصديقه يوحنا بولس الثاني، وعن دور الشباب في تجديد دماء الكنيسة... وعن حلّية الانجيل... وعن قصّة نضاله من أجل فلاحي النوردست البرازيلي...

وقاطعه أحد الطلاب وهو متكئ على مرفقه الأيمن وسيكارته في زاوية فمه في لا مبالاة واضحة:

- وما قصة قصرك الأسقفي؟ وهنا بانت أسنانه الاصطناعية بكل بياضها، وقال مبتسماً:

- تلك قصة طريفة: جاءني يوماً شخص رسمي بارز للتهنئة. استقبلت الرجل بالحفاوة اللائقة، وأخذته في جولة في معالم القصر وقاعاته وأروقته ومكاتبه. وتوقفنا طويلاً أمام نافورة المدخل التي يتراقص رذاذ مياهها في احضان الدرج الحلزوني المنفتح على لوحة سقفية تحتل كامل القبة وتحنو على "الباثيو" من أعلى الطابق الثاني. وأعرب زائري الجليل عن إعجابه الشديد بالآيات التوراتية المنحوتة، نزولاً وصعدا على الأعمدة والرتاجات، وذُهل بما ضمته الشرفات من مقرنصات وتخاريم رخامية، وأعمدة ملوية وأقواس مشرقية، وقناديل حجرية متدلية من القباب والحنايا، وكأنها قطع عالقة عفوياً في الذرى - وكنت قد أوعزت الى المهندسين والنحاتين والبنائين ألا يبخلوا بجهد او مال او رخام ليأتي البناء، من الخارج ومن الداخل، صرحاً يليق بعظمة الكنيسة المقدسة. واستطرد الأسقف الضيف قائلاً: وأخذت بذراع زائري -وأنا فخور بكل آهة اعجاب يطلقها- وتوجهنا معاً الى القاعة المدورة المزججة المطلة على الشاطئ، وجلسنا نرتشف القهوة البرازيلية الشهيرة، وزائري لا يزال تحت تأثير ما رأى:

- صاحب السيادة... أراك أصبت المرمى عندما زيّنت الأركان الأربعة لقاعة المدخل بجداريات مستوحاة من ملاحم تاريخ المدينة، ومن حياة بيت مريم الفقير حيث يكرب هذا المسكين يوسف بمنشاره اليدوي الطويل، وقد أمسك ابنه بطرف الخشبة الآخر بطريقة لا تدل على المهارة... وجدارية الحواريين... والفارس... ولكنني بصراحة كنت أفضّل ان تكون هذه الجداريات نحتاً بارزاً على الحجر انسجاماً مع البناء كله...

كنا ننصت الى قصة القصر بشغف عندما تنهد المتحدث وقال:

- ولكن نهاية القصة أقل رومانطيقية من بدايتها. وأضاف، وقد علت غيمة من الغمّ وجهه: في نهاية الزيارة رافقت زائري اللامع ومرافقيه الى البوابة الخارجية، معتزاً فخوراً، فاذا بشلة من البؤساء قعوداً على درجات المدخل، وبينهم نسوة بأسمال سوداء، عرفت فيهم بعضاً من أبناء ابرشيتي من الكسبة والعمال والفلاحين والعاطلين من الاحياء الشعبية، وقد بدوا لي منهكين جائعين. أفادني أمين سري أن قسماً منهم لم يزر اللحم بطونهم منذ عدة اشهر، وأن لبعضهم الآخر مشاكل عائلية مزمنة جاؤوا يراجعوننا بشأنها... وهنا تملكتني برهة من الصمت طويلة وأنا أتفرس بهؤلاء الصعاليك... وكنت قد اتخذت قراري: القصر الأسقفي...؟ منذ صباح الغد سأسكن أحد أحياء ريبسيف الفقير في بيت كسائر البيوت، وسأبقى الى جانب الفقراء والمحرومين!

وكان اسم الاسقف هلدر كامارا!

٦٢ يعجبني... ولايعجبني!

اكثر ما نستخدم كلمة "يعجبني"، ونحن امام طبق شهيّ من الأطعمة، او لون من ألوان الحلوى، او صنف من أصناف الفاكهة: "تعجبني الدولمة"، "يعجبني الموز"، "تعجبني زنود الست"... او غير ذلك مما تُحسن إعداده الأيادي الناعمة...

لست هذا الذي أقصده اليوم... فأذواقي، في الطعام والشراب، لا أبوح بها سوى لأم فادي... وإنما اتناول كلمة "يعجبني" بالمعنى الذي أورده لسان العرب الأصيل، كما جاء في قاموس المنجد: أُعجب بالشيء: سرَّهُ وعجب منه وتفتّن به.

- فبهذا المعنى الدقيق، يعجبني مسؤول يحاسب معاونيه او موظفي ولايته عن إهمال او غياب عن العمل، طال أمده من دون مبرر او إخطار... ولا يعجبني هذا المسؤول الذي لا يحاسب نفسه عن التقصير ذاته.

- يعجبني ان يحلم المرءُ في الليل، وهو غارق في وسادته حتى الأذنين... ولا يعجبني أن يقضي نهاره في الاحلام والخيالات، او يتثاءب من الضجر والفراغ... وكأنه هرٌّ كسول يتمطى في الشمس.

- يعجبني ان نخلّد ذكرى آبائنا وشخصياتنا التاريخية والادبية... ولا يعجبني ان كلَّ مرة قلنا كلمة طيبة عن احدهم، نرى أنفسنا ملزمين بقول عَشر أحسن منها للأحياء.

- يعجبني ان تكافح امرأة أرملة ومريضة وأم لسبعة اطفال... وتبقى تبتسم رغم كل هذا وذاك... ولا يعجبني رجل ينثر الاوراق النقدية على رؤوس الراقصين والراقصات، تباهياً في أمسية عرس، وكأنه قارون، ويرسل امرأته براحة ضمير لطلب المساعدة من اخوية المحبة.

- يعجبني ان يسهر العراقيون في شهر رمضان المبارك طوعاً، حتى منتصف الليل، للسفر مع "رهينة الماضي"... ولا يعجبني ان يبقى بعضهم "رهائن"، موديلات الازياء، وملاحة الوجوه، وملاحقة الاحداث، من دون ان يدخلوا الى جوهر الافكار المطروحة.

- يعجبني ان تُعقد مؤتمرات لبحث شؤون البيت وترتيب امور... ولا يعجبني ان تصادر اصوات الصغار بعد انفضاض المؤتمر... فيبقى السمك الكبير يبتلع السمك الصغير، وكأن شيئاً لم يكن مما كان...

- يعجبني كاظم الساهر عندما يغني: "كثُر الحديث عن التي اهواها... كثر الحديث مَن التي أهواها... هي أقرب من قلبي عني...".

ولا يعجبني -"طبعاً طبعاً"- هيثم يوسف عندما يبكي: "يا ناس ارحموا بحالي..."

- واخيراً تعجبني هذه القصة الطريفة عن زوجات القسس:

قالت إحداهن لصاحبتها:

- لا يأتي أحد الى كنيستنا... والمقاعد تفرغ، أحداً بعد أحد.

فأجابتها زوجة القسيس الثاني:

- أما نحن، فكنيستنا عامرة وتغصّ بالمصلّين... (ثم قالت بعد توقف): ولكن قولي لي يا أختي: أن ترقّعين ثوب "ابونا"؟

فأجابتها زوجة القسيس الأول:

- لا أكفّ عن ترقيع قفاه، وانتِ؟

- انا، لا أكفّ عن ترقيع ركبتيه!

- ها!... اذن هذا هو السبب!!

البقرة الضاحكة

٦٣

راديو مونتي كارلو يقطع برامجه فجأة ويُسَمِّر المستمعين -وهم كُثُر في الأمة العربية- في دواليب الهواء وهم يبلعون انفاسهم... ليعلن بصوت حماسي جهور خبراً يهم الكرة الأرضية بأسرها: البقرة الضاحكة، لا فاش كي ري، أجود الأجبان الفرنسية! فيردد الكورس بإيقاع يُحرك للرقص: لا فاش كي ري، لا فاش كي ري! ثم يتابع العالم جولته كما يبدو لك هذا الصباح من وسط لندن ومونتي كارلو وواشنطن! اما انا، فأبقى اتخيّل هذه البقرة اللعوب تضحك بملء شدقيها النهمين، في وسط مرج مخضوضر ممتد تحت اقدامها على مدى ما تتسع عيناها، واتساءل: ترى لماذا تضحك هذه البقرة؟ على مَن تضحك هذه البقرة؟ ثم، هل وصلت الدنيا حتى صارت البقر ايضاً تضحك؟ أهي ضحكة براءة، ام خيانة، ام غباء، ام مجرد ضحكة الراتعين في بحبوحة الأمان والشبع، لا شأن لهم بغيرهم إلاّ بقدر ما يستحلبونه؟! فيشرد ذهني ثانية لأفكر بأشياء لا صلة لها ببعضها:

تُرى لماذا صرتُ أرى في الشارع اناساً اكثر عدداً، يوماً بعد يوم، يتكلمون مع انفسهم، او يسيرون على غير هدى بهيئة ونظرات لا يُحسدون عليها؟! لماذا تُحطم مصابيح الشوارع والجسور وتختفي من المؤسسات العامة!؟ أحقاً لأنها لم تَعُد تنفع، ام تلك صيغة من صيغ ترشيد الطاقة! لماذا تُحرق الأحراش والأشجار وحدائق الجزرات الوسطية وحتى العامة؟! أحقاً لإبادة الحشرات وقتل الطفيليات وتحسين التربة! لماذا هتلر والنازية، يبعثان الرعب في العالم الغربي حتى اليوم؟! لماذا ذهب نابليون بجنوده حتى مصر، وموسكو؟ أحقاً لكي يُطعم عساكره المانغا والفودكا، ويحمل اليهما ثلاثية

الحرية والمساواة والأخوّة! لماذا هولاكو احرق الحضارة في بغداد؟ لماذا هيروشيما وناكازاكي؟ لماذا يكون الأقوياء أصحاب الحق، والكبار وحدهم اصحاب الكلمة الفصل، وما على الصغار للحصول على الأمان، إلاّ الرضوخ؟! لماذا يتآكل العراق في شرقه وغربه وشماله وجنوبه؟ ولماذا هاجت الدنيا كلها وماجت عليه، فأحالت شعبه لا حول ولا قوة، وحاصرته في البر والبحر والجو، لا في التسلّح العسكري فحسب، بل في الثقافة والبناء والمعرفة ايضاً، بل في الخبز والماء والدواء والضياء، قبل ان يتباكوا، لغسل ماء الوجه، على شيوخه وأطفاله باسم الانسانية! أم إن بيننا وبين أرض "اميركوس" حدوداً مشتركة فيخشون أن نصادر يوماً جزيرة منهاتن، او نؤمّم شلالات نياكارا!

وتضحك البقرة وتضحك وتضحك، وتقول لي وهي تقضم حزمة من العشب: ولكن يا صديقي، هذا هو النظام العالمي الجديد، ألم تسمع به؟ فمنذ الآن وصاعداً، لم تَعُدْ حاجةً الى قوانين تتثاءب من الضجر في أروقة الأمم المتحدة، لان صاحب البيت الابيض، بالاتفاق مع شيوخ الكونغرس الأفاضل، وباسم اميركا سيدة العالم، تبرعوا مشكورين، كلما أملت بذلك مصالحهم، بردع كل من سوّلت له نفسه رفع رأسه على هذا النظام القاضي بأن تبقى اميركا سيدة البر والبحر والجو والعلو والعمق، وصاحبة السلطان والقدرة والتحكم، في الشرق والغرب. ردعها عبارة عن قوات مسلحة برية او بحرية او جوية تزج بها في اية بقعة من الدنيا تشاء، وتوجيه صواريخ عاقلة ونظيفة لا تلوث البيئة، او فرض عقوبات اقتصاية مختلفة الأحجام والنوعية، قد تمتد الى بضعة عقود، حتى يرضخ "المذنبون"! وقد برهنت التجربة فاعلية هذا النظام في كوبا لأكثر من ٣٠ عاماً، وفي العراق وليبيا والبوسنة والهرسك وغيرها، وتجري تعديلات لتطبيقه حتى على اقطار اوربا وكندا، وآخر المرشحين ايران وتركيا! فلتضحك البقرة ما شاءت، من هذا العالم الغريب الذي أُصيب نصفه بمرض جنون البقر، ونصفه الآخر بداء فقدان المناعة الذي يدعى "الأيدز"!

٦٤ هذه العقدة من يحلها؟

رسالة مفتوحة

الى أصحاب القداسة والغبطة آبائنا الكليي الطوبى بطاركة وجثالقة كنائس الشرق العريقة على الكراسي التاريخية في القسطنطينية وانطاكية والاسكندرية واورشليم وكوخي وبابل وكيليكية واجميادزين...

بعد نيل بركتكم الرسولية، واستئذان لطفكم الأبوي، أستسمحكم بأن أكون لسان حال اخوتي واخواتي من رعاياكم المشتتين في بلاد عربية وأعجمية في هذا الشرق الذي يدعى أوسط أو أدنى... حائرين في هموم شتى من شؤون دنياهم، يُزاد عليها، كل عام في مثل هذه الأيام، هذا الهمُّ الآخر، ألا وهو "العيد" وقد أصبح "عقدة" في نفس كل واحد. وستتفاقم "العقدة"، هذا العام بالذات، حيث يفصل "العيدين" شهرٌ كامل بأسابيعه الأربعة.

تقولون لي، اصحاب القداسة والغبطة: هذا شأن غير ذي بال. فما يوحّدنا اكثر مما يفرقنا، والعيد ليس غير مظهر، وليس بعقيدة، والمهم ان نكون على ايمان واحد بالمسيح الواحد. أما تعدد الطقوس واللغات في الكنيسة فهو غنى وثراء... طالما انه تعبير عن شموليتها الحضارية والثقافية. وتضيفون بأن الأعياد المسيحية نفسها هي وليدة تاريخ وجغرافيا... وان لعيد القيامة ذاته، حسابات فلكية واعتبارات تتعلق بتقويم يولياني شرقي وغريغوري غربي، في احتساب الاعتدال الربيعي وموعد الفصح اليهودي، وكل هذه شؤون لا تمسّ عقيدتنا الواحدة بقيامة المسيح!

اصحاب القداسة والغبطة: لقد قلتُ ذلك كلّه مراراً وتكراراً لأبنائكم وبناتكم ولم يقتنعوا. واذا اردتم الصدق، يا سادتي: إن حركة الشمس والقمر، والاعتدالات الربيعية واليهودية، وحساباتكم الشرقية والغربية... امور تخصّكم انتم وحدكم، ولا تقضّ مضاجعكم ولا مجالسكم. اما ابناؤكم وبناتكم فتقضّ مضاجعهم، وتغمرهم خزياً وخجلاً امام جيرانهم، وزملائهم في العمل، وأمام انفسهم عندما يسمعون من يتهكم عليهم:

- إيه! انتم، مسيحكم قام ام لا يزال نائماً؟

- هل تعيّدون في الدور الأول أم في الثاني؟

- أيّ العيدين هو الصحيح؟ ما هذه المهزلة؟!

أصحاب القداسة والغبطة، ابناؤكم وبناتكم يبقون يتساءلون ولا يجدون الحل:

- ترى، اذا لم يكن العيد عقيدة، فلماذا لا يجلس رعاتنا ويتباحثون جدياً في امر توحيده، على أي سياق كان، فنرتاح ويرتاحون! أم إننا لسنا شيئاً أثقل في أعينهم، حتى يأخذوا معاناتنا على محمل الجد؟ أسيختلّ توازن الكرة الأرضية، ويتشوّه تراث آبائنا وأجدادنا لو تنازلنا عن تقليد يشهد على فرقتنا لصالح تاريخ جديد يشهد على وحدتنا، في أقطار نحن فيها قلة ضئيلة ومتضائلة يوماً بعد يوم، في بحر مترامي الأطراف؟ أفننتظر مئة عام أخرى، يوم لن يبقى سوى نواطير الاثار؟

أنودع الأمر الى أيديكم مرة أخيرة، يا اصحاب القداسة والغبطة، في نطاق مجلس كنائس الشرق الأوسط مثلاً، أو مجلس بطاركة الشرق، او أي مجلس او مؤتمر لهذا الشأن... أم نسلّم أمرنا الى ايدي القديسة ريتا، شفيعة الأمور المستحيلة؟

ليمدّ الله في اعماركم ويأخذ بأيديكم كي نقول في عهودكم، كلنا سوية، في يوم واحد، وبنشوة واحدة: "قام المسيح... حقاً قام"!

٦٥ يوم من الملكوت

في الأفق... باتجاه الشمس الصاعدة في الذرى... دير... ونحوه نهر بشري طويل متعرج يجري... يخترق حقولاً خضراء مترامية، تخضّبها شقائق النعمان وكأنها بقع دمٍ قانٍ رُشَّ على جبين الربيع...

أقتربُ... وقلبي يهفو... يلهث... يقفز خارج صدري من الفرح والغبطة... ماذا؟... مَن؟... هل حقاً؟... شكراً يا الهي شكراً!

رايات... الوان من قوس قزح... شباب... صبايا... عجوزتان في كعب الطريق، تسيران الهوينى... ثغورٍ باسمة... منشرحة... كراديس كراديس جذلى ترتل... تزمّر... تصفّق... تهتف... "ما أحلى ان نجتمع معاً"... الرب هنا دوماً معنا... وروحك ملأنا فرحاً".

صليب من جذعَي شجرة "سمراء" يقود الموكب بهامة عالية... ويتبعه موكب ثان... فثالث... حجاج الى منابع النور!

شيوخ ثلاثة -ككحماء الشرق الثلاثة- بلحاهم البيضاء وشرائط حمراء في أكمامهم وأزرارهم، يتقدمون المسيرة الراجلة، وكأنهم رعاة يشقّون الطريق امام القطيع... فجأة يرتعش الصليب الذهبي الذي على صدورهم فيهرعون، الواحد تلو الآخر، الى حمل الصليب الخشبي الكبير على اكتافهم المثقلة بالسنين... ولربما بالهموم ايضاً...!

وتتبّدل الرؤيا بين قبو الشهادة وقبة المجد... ويبدأ العيد وأي عيد! مهرجان؟ بل عرس وأي عرس! ستة آلاف شاب وفتاة من سهول نينوى وهضابها وجبالها الشماء... في نشوة... يكتشفون وحدتهم

وجذورهم... في ضمّة رائعة... ساعات سكرى... لم يعودوا فيها من هذا العالم... راية الحي القائم من بين الاموات تخترق الصفوف... ترتقي السفح نحو القمة... وتصدح الاجواء بالترتيل على ايقاع أروع ما وضع الموسيقار الأصم... "غنوا يا أبناء الله... يسوع المسيح قام... ليس لملكه انقضاء..." . زخات هادرة... متلاحقة... متلاطمة من التصفيق... غابة من الأذرع تلوّح... وتتحوّل الأبصار كلها نحو الشريط الأبيض المتدلي حول ذراعي الخشبة في أعلى التل... وفي لحظة غرز الصليب في الأرض وارتفاعه "بعنفوان" نحو قطعان الغيوم البيضاء الذاهلة مما يجري... تنفجر الحناجر بسيل متسارع من الزغاريد و"الهلاهل"... أفي جبل الجلجلة نحن، ام في أرض العراق؟... أم نحن في أعتاب الملكوت؟!... وتسيل دموع... على خدود رجال ونساء... دموع الفرح... والتأثر... والإيمان... وهل غير الإيمان يفعل مثل ذلك؟!

ويتسلل الى الحلبة شيطان أبكم يقهقه ويتهكم ويغري... زوجان شابان هائمان بحثاً عن صندوق السعادة... فيطرح المجرّب بضاعته... فيتحول سوط السلطة الذي يناولهما الى حبل مشنقة يلتف حول عنقهما... والجواهر والمال الى عقارب تلدغ اصابعهما... والتفاحة التي قضماها بنهم تقف في منتصف حلقيهما... فيأتيهما الخلاص من يد ممدودة من تحت صليب خشن الاطراف... وتتلاحم الأذرع في حركة تَوَحُّد وارتقاء... وتمتزج اصوات المرتلين للأرض والرجاء مع دويّ التصفيق... "فرحي هو الرب"! ويخترق موكب الفرح الجمهور المشرئب حاملاً البشرى... فيهزّه تيار من العنصرة الجديدة.

وماذا أقول ايضاً... عن تشابك الأكف... والقلوب في عناق السلام... وفي صلاة "الأبانا"... وفي حماس الأرسال... وفي... جو من الانشداد الرائع، لم يفارقه الوقار لحظة... بالرغم من فيض الفرح الذي كان يتفجر... خبرة تلامس مجد الملكوت... تسأل كيف كانت؟ - انا اليوم لست كالبارحة! قالها ثمِلٌ بما شهد وعاش... بعفوية تسقط أمامها كل بلاغة. أجل ثم أجل! طوبى لكم لما رأت عيونكم وأحسّت به قلوبكم!

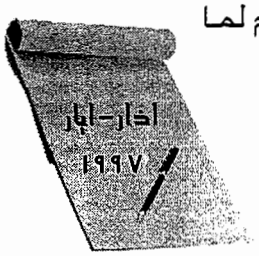

٦٦ ملاحظات من الطرق

للسفر براً متعة وفوائد لا يوفرها السفر جواً. فبينما كانت تختطفك الطائرة من واقعك الأرضي وتنقلك من بغداد الى بيروت او باريس، مثلاً، كما في سالف الأيام، بسرعة تكاد لا تتيح لك التهام الطبق الغذائي الذي تضعه امامك المضيفة الحسناء بابتسامة تنسيك أين انت: صرتَ اليوم، اذا حالفكَ الحظ بالسفر، وبفضل الحصار الغاشم، تمتطي صهوة سيارة -كما كان اجدادنا العرب يمتطون صهوة جواد او سنام جمل- عبر صحراء سوداء مترامية الاطراف في رحلة الى اقرب مطار قد تمتد الى ثماني عشرة ساعة او اكثر، يتسنى لك فيها، حسب مزاجك، ان تأكل او تحل الكلمات المتقاطعة، او ان تتحدث مع جارك عن كل شؤون الدنيا والأمة العربية وانت جالس في مقعدك، او أن تنسى من اين اتيت والى اين تذهب ولماذا... فتتثاءب، فتنام، فلا تستيقظ إلا في الحدود...

وبينما انا في نصف غيبوبة، باغتتْ نفسي شارداً في ما آل اليه تدهور الحضارة المفروض علينا... فرأيتني أول الأمر أمزح مع صاحب المطعم بشأن فراخ الدجاج والبط التي كانت تلهو بين أرجل الآكلين... وعاد الى ذهني صوت النادل الذي يصيح من وسط القاعة الى صاحبه في المطبخ بأعلى صوته وضمّة خبز أسمر على ساعده الأيسر: أثنين يابسة... واحد قوزي على تمّن... اربعة جلفراي... داريهم! وتذكرّت المغاسل... لا تسلني عن احوالها ولا عن ألوانها!... بماذا تنشّف يديك ووجهك اذا اغتسلت؟ المناشف؟ الكلينكس؟ الهواء الحار؟ هذه امور من حضارة انقرضت. اما اليوم فلك اشعة الشمس، او اشعة ليزر على هواك! وعلى ذكر المغاسل...

تراءى لي منظر آخر في أحد مطاعم الطريق بين الموصل وبغداد: وحدة مغاسل مكشوفة لا يفصلها سوى حاجز زجاجي مفتوح في احد الاركان الداخلية من المطعم. والكلام عن المطاعم طويل لا يتوقف هنا...! أقول كل مرة قصدت هذا الركن استهجنت تلك الجيرة!

وشرد بي الفكر من المطاعم الى المشارب... عفواً... الى "دكاكين" الشرب. دَلَفْتُ يوما الى احدى هذه الدكاكين المجازة ببيع "المشروبات الروحية" كما يسمونها دَلَعاً، وكان الوقت مساءً. فاذا بصاحبها منشغل في تعبئة أكياس من النايلون بأحجام مختلفة من أنواع المشروبات المحلية والمستوردة، من البعشيقلي الى السكوج... والاكياس ترحل تدريجياً وبسرعة. فسألت: لماذا ليس بالقناني؟ أجاب: كالسمنت نبيع "فلّ"! أما لماذا، فالاسباب تتراوح بين خوفنا من عدم عودة القناني، وخوفهم من افتضاح امرهم امام معارفهم. وأين يشربونه اذن؟- على حوافي الشط، او قارعة الطرق داخل سياراتهم. ودخل رجل يشهد على وقاره عقاله الاسود وكوفيته الناصعة البياض كدشداشته الخليجية، وبعد التحية قال: ماذا نشرب اليوم، ويسكي ام بيرة - تُرى، اذن، أليس كلاهما حرام؟! فقفزتْ الى ذهني قصة ذلك السائق الذي امتنع عن نقل ركاب يحملون معهم صندوقاً من هذه "المحرمات"، ثم جاء في اليوم التالي يشتري قنينة منها وهو لا يعلم ان البائع هو احد الركاب الذين رفضهم البارحة!

اخيراً اليكم هذا المشهد: باعة متجولون احتلوا الرصيفَ وهم يصبّون الشربت، الخالي من كل مواصفات مراقبة الاجهزة الصحية، ويوزعونه بهمّة على السواق والركاب معاً وهم قعود في سياراتهم، عند نقطة تجارية من شارع مزدحم وسط المدينة، غير آبهين بما أثاروه من عرقلة سير وتشابك هورنات وأصوات الاحتجاج والصياح...

- ولكنها مبرّة من مبرّات العيد، فلا ضير في ذلك!

- لهم وللشاربين الأجر والثواب. انه سميع مجيب!

٦٧ بريد السماء

... وفي تلك الأيام، تنشط حركة التناولات الأولى، وتنشط معها حركة غير عادية في البيوت، لتهيئة مستلزمات العيد... من بيض للكيك، ولحوم للشوي، ودجاج للحشي، وأكياس البسك للتقديم، وقناني عصير الكرمة والتفاح وماء الشعير، وخروف للذبح تحت أقدام قرّة العين. وينشغل الخيّاطون والخيّاطات، لأسابيع، في هندسة الفساتين وتصميم التنانير... ليس بالضرورة للمتناولين أنفسهم... بل للعمة والخالية، والأخت والماميه! لربما لا يتيح الحصار الجائر المفروض على قطرنا العزيز، كل ما تشتهيه النفس والعين... ولكن بعضهم (أو بعضهن) يقول، وفي صوته (او صوتها) بحة دلال: ترى، أنعيش مرتين... ثم، أأضمن لنفسي في هذ الزمن الرديء والأيام الصعبة، أن أرى عرس ابني أو ابنتي؟!... اليوم خمر وغداً أمرّ! رحم الله من قال...

طبعاً هذا لا يمنع ان يكون ثمّة متناولون لا يأكلون "الكمأة" يوم تناولهم الأول، وليس لهم كيكة يقطعونها لدى عودتهم من الكنيسة... وقد يكون من لا يفطن الى ذلك إلا بعد ثلاثة أيام! في زحمة الأفراح والزغاريد ورشّ ماء الورد في باب الكنيسة، سيكون ثمة متناولون ومتناولات، كاد قرار حرمهم من التناول يصدر قطعياً لولا تدخّل "الماسير" او "أبونا"، وذلك لمجّرد تعذّر حضور أحد الأقارب الأباعد... أو لربما فقط لضيق ذات اليد، وعدم امكانية إقامة الوليمة.

"الوليمة" شرط من شروط التناول الناجح، أليس كذلك؟! (أما يسوع فلم أجد موقعه حتى الآن!)

تلك هي هموم الأهل... أما هموم الأبناء فهي من نوع آخر: لقد حضرتُ "تناولاً" في إحدى المناطق الريفية، وقد حرّكت أعماقي رسائلُ بعث بها المتناولون والمتناولات الى يسوع. نعم الى يسوع نفسه! واختاروني في ذلك اليوم لأكون "بوسطجي" الجنة، فأوصل الرسائل الى أصحابها. قبلت المهمة باعتزاز ولكني قبل تسليم البريد الى "حبيب قلبي يسوع"، كما عنونت إحداهن، أخذت الرسائل الى بيتي، كما يفعل بعض الموظفين، وفتحتها لأقرأ خشية ان تحتوي ما هو محذور دخوله الى الجنة! ويا ما قرأت!

* رائف: يرسل صورة هدية ليسوع، ويوقّع رسالته، برسم قلب، يخترقه سهمٌ من يسوع الى رائف.

* فائزة: "أطلب من الله، أن يفتح باب الخير والرزق، ويسدّ باب الظلام".

* فارس: "يا يسوع، ساعد جميع المرضى في المستشفيات، والمشرّدين في الشوارع، والعوائل المتفككة والفقيرة".

* نانسي: "طلبي الأخير هو ان تشفي أميّ المريضة من آلام رجليها. أودّعك ولي أمل باللقاء بك فيما بعد".

* رواء توقّع: "أختك المخلصة". وتقول: "أنت ترى مأساتنا، وصراخ أطفالنا، وهم يطلبون من امهاتهم الحليب. ومرضانا الذين لا يستطيعون الكلام، فقط في قلوبهم يقولون: يا رب ساعدنا".

* رواد: "يا رب اجلب لنا الأسرى، ويكون من بينهم خالي فهمي".

* منى: "يا يسوع ليّن قلوب الأغنياء، لتكون رحومة على الفقراء".

* بيرونية: ترسم ٣٥ قلباً ليسوع وتطرّز بها رسالتها.

* ناتالي: "أطلب منك بقلب مؤمن، أن تشفي خالي، وأن يرزق خالي بطفل".

* فلونة: "أنت تعرف مقدار حبي وشوقي اليك. كم اشتاق الى رؤيتك في كل لحظة، فأنا أعيش لأجل حبك. ان رغبتُ أن أرى شيئاً، فهو أنت".

* سونيا: "كنتُ اعرفُك سابقاً، ولكن الآن تعايشتُ معك، وتعلّمت منك معنى الحياة، بطريقة لم أعرفها سابقاً".

* كرم يعنون رسالته الى يسوع أخ جميع الأطفال: "أرجوك أن تحفظ لي أبي وأمي الى ان استطيع الاعتماد على نفسي"...

هذا عبق من ذلك المسك.

٦٨ حدث سنة الألفين

شيخ ثقّلت الأيام على كتفيه، فتقوّس ظهره، وكلّ بصره، ونالت منه نوائب الحياة، إلا عزيمته التي بقيت صلبة كالصوان... يجوب بها أطراف الدنيا واعظاً، معلماً، مذكّراً، مرشداً، ومدافعاً عن كل حق مهضوم... حتى حطّ الرحال أخيراً في أرض بابل. ما إن وطئت قدماه الواهنتان الأرض التي أقام فيها حزقيال ودانيال، حتى خرّ يقبّلها معفّراً وجهه بتراب الأنبياء. طفل بزيّ البادية وطفلة خُصَلها من كردستان، وشالها المزركش من نينوى، وعيناها آشوريتان يُقدّمان التمر واللبن، للشيخ القادم من بعيد، رمز الضيافة والكرم والترحاب...

ويعدّل الشيخ الهرم كوفيّته البيضاء وعقاله على رأسه الأشيب، ويتعكّز على عصاه المعقوفة، وهو على عجلة من أمره، ليتوّجه بخطى متثاقلة -وقد استنار وجهه ببريق أولياء الله- نحو بلد أبينا ابراهيم عليه السلام، حاجًّا الى جذور الإيمان ومهبط الوحي الأول. حلم طالما راوده، وعهد قطعه على نفسه... يلج به الألفين! ويبحث الشيخ الملتحف بالبياض في خرائب بيوت طينية مبعثرة قيل له إن ابراهيم قد سكن إحداها قبل أربعة آلاف سنة. وفيما هَمّ أن يتسلّق درج زقورة نسي الدهر بقاياها في هذه الصحراء الرملية المترامية -وكان النهار قد مال الى المساء- إذا برجل ملتحٍ أشيب يناديه من الخيمة: - "حياك الله يا الغريب! من تكون وماذا تطلب؟" وقبل ان ينتظر الجواب بادر الى لقائه وقاده الى خيمته، وقال:

-"يا سيدي، هلا تتفضّل وتدخل بيتنا. فالضيف ضيف الله، ومقدمه الينا بركة من الله. هلا تجلس فنقدّم لك قليلاً من الماء فتغسل رجليك وتستريح تحت الشجرة. ونقدّم لك ولأصحابك ما تسندون به قلوبكم من عناء السفر!".

وتذكّر الحاج القادم من بعيد أنه سمع مثل هذا الكلام عينه، لا يدري متى وأين؟ وما إن تربع الضيوف على الأريكة الصوفية في مدخل الخيمة، حتى هرع المضيف الى زوجته لتعد فطائر حارة على عجل. وبادر هو إلى القطيع العائد تواً من المرعى، ونحر الذبائح، وأعدّ عشاءً كبيراً دعا اليه وجهاء الخيم المجاورة. وتجمّع سكان بيوت الشعر في تلك الديرة، رجالاً ونساءً وأطفالاً، ليروا الضيف المبارك، وجلسوا حواليه القرفصاء. وصار يحدثهم على ضوء القمر الى ساعة متأخرة من الليل: - "يا اصدقائي وأولادي. شهوة اشتهيتها شديدة، أن أراكم هنا وآكل معكم هذا العشاء في موطن ابينا الواحد قبل أن اموت. ولي أشياء كثيرة أقولها لكم".

وكان الشيخ المتشح بالبياض يتكلم بنبرة هادئة، وتخال قوته كلها في صوته الأجش، حين يتوقف على بعض الكلمات والمقاطع: "لقد آمن أبونا ابراهيم بما كان يبدو للناس مستحيلاً: أن يكون له ولد، وهو وامرأته طاعنان في السن... وأن يكون أباً لذريّة بعدد نجوم السماء وحبّات رمال الصحراء، حين كانت السكين على عنق ابنه الوريث. ويأتي الولد... وتنجو الذرية... ونكون بالربوات أحفاداً لإبراهيم! تبدو قوى الشر متآلبة ضدكم، تسلب قوتكم وتخنق أحلامكم وتوقف مستقبلكم. صدّقوني إن قوى الخير معكم، وهي أقوى. آمنوا بأن لا شيء مستحيلاً عند الله، واثبتوا في الرجاء صامدين... تنالوا الخلاص، وينتصر النور على الظلام، قريباً. ثقوا ان العد التنازلي قد بدأ. قوتكم في وحدتكم. ومتى ما توّحدت كلمتكم هابكم خصومكم... لا تدعوا التعصّب الديني او العرقي او الانغلاق الطائفي يعمي بصائر بعضكم، ولا يظنن هذا البعض ان الله يُفرد مكاناً في الجنة لمن باسم دينه يقمع او يخرّب او يؤجّج الحقد".

توقف الشيخ قليلاً، ثم استطرد: - "اكسروا السيوف واصنعوا منها مناجل للحصاد. أرضكم أرض خير، وقد باركها الله بشخص أبيكم ابراهيم منذ القديم. في زمن حصاركم ومحنتكم اقول لكم ما قال النبي اشعيا قبل قرابة ٢٥٠٠ سنة. فكّوا رُبُط الخوف. أطلقوا المظلومين أحراراً. إكسروا خبزكم للجائع، أكسوا العريان، آووا البائسين والمهجّرين، إصنعوا السلام... حينئذ يبزغ كالفجر نور بلدكم من جديد، ويندمل جرحكم سريعاً... ويجتمع شملُ ابنائكم المشتّتين. ومن بقي منهم في الشتات يجعله الرب خميرة خير، وبه تتبارك الأمم التي تستضيفهم".

وكلّمهم رجل الله بكلام كثير من هذا. وأفرد فقرات غير قليلة لرعاياه، إذ أوصاهم بالوحدة وتجاوز مظاهر التباهي والمزايدات في ما بينهم، وبالتزام رسالتهم الروحية، مذكّراً إياهم بجذورهم الحضارية والثقافية في هذه الأرض، وبالتضامن مع شعبهم بكل آماله وآلامه، لبناء المستقبل معاً وسوية. ثم وضع يديه على بعض الشيوخ والأطفال.

وفي اليوم التالي، منذ الخيط الأول للفجر إنطلق إبراهيم من أور مع ضيفه

يوحانون الى ارض حران وممرا، والى أرض الكناعنة، والفراعنة، قبل أن يجمعا سوية الأحفاد المتنافرين في جمع صلاة على جبل اورشليم-القدس.

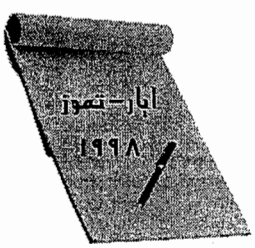

٦٩ سيدتي

نيويورك، شارع (٥)،

زقاق (٥٠)،

الساعة (١٠) صباحاً.

كاتدرائية سان باتريك. نموذج متأخر من الفن الغوطي الفرنسي. برجان مُدبّبان شاهقان من المرمر الأميركي المُخرّم يجهدان في شق درب لهما الى النور بين غابة ناطحات السحاب التي تعلوهما بعشرات الأمتار، متدافعة متسابقة في ما بينها نحو الغيوم، في قلب وسط تجاري ومالي من أكثر الأوساط التجارية في العالم صخباً. بابان برونزيان جباران تزينّهما شخوص بارزة من الإنجيل. عالمان متناقضان تماماً: الداخل والخارج. فبالرغم من عدد الزوار يخيّم هدوء تكاد لا تسمع فيه سوى زفير احتراق الشموع. فتَلُفّنا رهبة المكان، ونجلس ردحاً غير يسير لصلاة صامتة في مؤخرة الكنيسة.

أسندت رأسي الى كفيّ وأغمضت عينيّ، وذهبت في مناجاة حميمة مع الرب... ذكرت له مَن أحبهم... ومن أشاطرهم الرجاء عينه... ومن أحمل حر النهار وثقله معهم في بلدي وكنيستي... ذكرت له معاناة شعبي المحاصر... ودموع الثكالى والأرامل وحسرات الشيوخ... ذكرت أحلام الطفولة المخنوقة في أرضي، والطموحات التي أجهضت قبل اكتمالها، وتبعثرت أشلاء أشلاء على طرقات الدنيا، أو ضمُرتْ الى حدّ الكفّ في قلوب شبابنا وعذارانا... كان الروح قريباً

ينير بسراجه قلبي ويحركه بالحب والحماس. وفجأة أخذت دفتر الجيب وسجلت فيه بعض الأفكار لمشروع رسالة مفتوحة بعنوان "سيدتي" أخاطب فيها أميركا. أميركا التي بعضٌ من معاناة شعبي صنع يديها، والبعض الآخر عتاب مرّ عليها:

سيّدتي، لقد رأيت عظمتك وقوتك، وشهدت اتساع أراضيك وغاباتك، وغزارة مياهك، ووفرة ممتلكاتك. وانتصبت أمامي أبراجك ونواطحك التي فاقت بكبريائها برج بابل، وتحدّيتِ السماء بأقمارك ومركباتكِ الفضائية وطموحاتكِ الكونية. وانـي لأشهد بأن غناكِ الحقيقي يتمثل، قبل هذا وذاك، في حيويّة شعبكِ وانكبابه على العمل والانتاج والاستنباط والتسويق، ليل نهار.

لقد كنتِ غريبةً، منبوذةً، جائعةً في اوربا... ثم تجمعت من الرياح الأربعة، وجئتِ واشتغلتِ وأثريتِ وتحررتِ ونصبتِ على شواطئك تمثالاً، وبذلك التمثال رأيت رمز تصميمك على ضمان الحرية والحق لجميع رعاياك... تُرى أليس حُلُمِكِ الى حد قد أنساك أن لغيرهم من بني البشر حرية وحقوقاً ايضاً؟!. حدودك ومصالحك مصونة مسيّجة في البر والبحر والجو وحتى في النجوم والأفلاك قاطبة... أمّا غيرك، فيدُك وعينك عليهم بطائراتك الاستطلاعية وجيوشك وعملائك المبثوثين في العالم: تسلبين، وتحطمين، وتؤدّبين على هواك وبأسلوب رعاة البقر، اسلافك الغابرين. أليست أفعالك ردود فعل أكثر مما هي أفعال رزينة؟... أليس ثمة طرق أخرى للتخاطب بينك وبين الشعوب غير العقوبات والتلويح بالدمار والويل والثبور؟!

أوَ تكون حقوق الإنسان حريةً وكرامةً وطعاماً ودواءً وكهرباءً في منهاتن ولاس فيغاس وتكساس، ولا تكون كذلك في بغداد والموصل وكربلاء؟! أليس يُنتظر منك، وأنت العظمى، أن تحمي حقوق المظلومين، وتعملي لرفع الجور والحصار والجوع، ومكافحة المرض والأوبئة، وضمان التعاون والتضامن بين الشعوب، عوض تأجيج الصدامات المسلحة والأزمات هنا وهناك، وتعطيل جهود البناء

والاستقرار والسلام، وفرض الحصار على العلم والثقافة والتكنولوجيا والغذاء والدواء، على حد سواء؟...

رسالة اختنق بها قلمي... طويتها ووضعتها على درج كاتدرائية القديس باتريك، قبل ان اختمها بطابع الأمم المتحدة، وأودعها بريد المنظمة الدولية على عنوان كوفي عنان، الى من ترى نفسها سيّدة العالم.

٢٠٠١

٧٠

متى سيبدأ القرن الحادي والعشرون؟ في بدء عام ٢٠٠٠ أم في ٢٠٠١؟

سؤال محيّر. فلقد قام جدل مماثل قبل مئة عام تماماً، لتعيين توقيت بدء القرن العشرين: أيكون في ١٩٠٠/١/١ أم في ١٩٠١/١/١؟

لاشك أن الأصفار تستهوي أمناء الصندوق في المصارف أكثر من الأرقام "المتكسّرة". وفي لفظة "ألفينْ" مسحة من الشاعرية والخيال لا تجدها في عبارة "ألفين وواحد". ولكن إذا كانت الأرقام تبتديء بواحد، على قول طلبة الرياضيات، واذا كان للقرن مئة سنة، على حد حسابات علماء الفلك، فينبغي أن يكون ابتداء القرن الحادي والعشرين في الدقيقة الأولى، من اليوم الأول، للشهر الأول، من السنة الأولى، بعد الألفين... وكان الله مع الصابرين!

في انتظار ذلك، والى أن تنقلب "التسعات" إلى "أصفار"، بدأ العد التنازلي لتوديع القرن العشرين، والتهيؤ لاستقبال القرن الحادي والعشرين، وبدأت حمى التنبؤات والتوقعات... بعضها مبهج، وبعضها كالح كوجه نوستراداموس:

فإذا كانوا في روما -والعالم المسيحي- قد أوعزوا الى الخيّاطين والخيّاطات بتفصيل بدلة اليوبيل العظيم... وإذا كان البعض، منذ الآن، قد حجز طاولته لآخر عشاء في هذا القرن في مطعم كذا وكذا... وإذا شرع غيرهم بإعداد برامج آخر ليلة من القرن

العشرين... وآخر رقصة... وآخر قبلة لمن تكون... فهناك من يتنبأون بنهاية العالم، كما يحدث في نهاية كل ألفية، ومن يستعدّون، بكل بساطة، لانتحار جماعي لاستعجال يوم الحشر العظيم. أرجو أن تكون حساباتهم مغلوطة. وأرجو أن أدخل القرن الحادي والعشرين، أنا وأنتم والسامعون وكل "الحبايب"، بالفرح والضحك... إن شاء الله... على الأقل لكي ننسى للحظات ما نتخوف منه في أعماقنا. ليس بسبب العبور من ألف عتيق مخضرم الى ألف جديد يافع... بل لأن مقدّرات الشعوب أصبحت، في كل يوم جديد، لا على كفّ عفريتٍ واحد، بل جمهور من العفاريت النفاريت! وتتقمّص هذه العفاريت أشكال بشر أحياناً، وأحياناً تتخذ أسماء أعجمية مثل الدمار الشامل، والنووي، والكيمياوي، والعنصرية العرقية او الدينية وما شابه!

مع هذا وذاك أبقى متفائلاً، ويطيب لي أن أؤمن بتحقيق بضع نبوءات في مستهل القرن الآتي، منها:

- أن "باب الرحمة"، في كنيسة القديس بطرس بروما، سيبقى مفتوحاً طوال سنوات اليوبيل لقبول الحجّاج المتأخرين، وسيُستبدل إسمُه باسم "باب الأخوة"، ومنه سيُعلَن إتحاد الإخوة في فصح واحد.

- أن أبواب الرزق ستُفتح من جديد أمام العراقيين، وتُغلق "شبابيك الرزق" المتنامية حالياً كالعشب الرديء في كل معاملة رسميّة وغير رسميّة.

- أن أسقفاً جليلاً من رعاة كنيسة ما بين النهرين سيستعفي من منصبه في ٢٠٠١/١/١، أي بعد خمس سنوات من التأخير. وقد تصيب النعمة قلب ستة آخرين في أو قبل هذا التاريخ، ممن تجاوزوا السن القانونية.

- أن في سنة ٢٠٠١ سيُسمح للنساء والفتيات أن يصلّين على جبل آثوس اليوناني الذي يقطنه الرهبان وحدهم. وبذلك سيُلغى قانون،

يرقى الى أكثر من ألف سنة، يمنع النساء والأطفال وإناث الحيوانات من التواجد هناك.

- أن مدينة الموصل ستتخلّص في سنة ٢٠٠١ من آخر مستنقع ومزبلة في أزقتها، وستُردم آخر حفرة في شوارعها، وسيعمل الكهرباء على الطاقة الشمسية والقمرية ليل نهار. أمّا "التلفونات" فسينافسها الخلوي والفاكس والانترنت وكل أنواع الصحون الطائرة في الجو.

وهناك تنبؤات أخرى، مما لم يُعلن عنه ستتحقق في حينها، إن شاء الله!...

وكل قرن وأنتم بخير!

٧١ الشيخ أبو فادي

في غفلة، في طرفة عين تنادت الأصوات في مجلس شيوخ القبيلة، فبايعت أبا فادي بلقب المشيخة، وبكل ما يترتب على هذا اللقب من تكريم والتزامات ووقوف امام الأضواء.

وبلغ النبأ الى أبي فادي نفسه، فاستغرب الأمر في أوله، ثم هاله واستبعده، وسأل نفسه، أترى، ربي، لماذا أنا، على ما أنا عليه من تمرّد وبعد عن مثل هذا المقام؟! وطلب الرحمة من الله والصفح عن زلاته، والتمس ان تبعد عنه هذه الكأس. واستنجد بمجلس الشيوخ كي يعيد حساباته وتقييمه، وأن يتوجّه الى غيره ممن حباهم الله بميزات ومواهب وقدرات وحسب ونسب اكثر منه، ولكن السيف سبق العذل، ورضخ أبو فادي للأمر الواقع، وقبل بما رُسم له. ولم يرَ في الأمر سوى جانب الخدمة والعطاء، وحلم ان يبقى على ما كان عليه من عفوية وبساطة وصلة قربى مع صغار الناس، وآلى على نفسه أن لا يلبس كوفيّة المشيخة إذا سلخته عن القاعدة، وغرّبته عن أحلام الناس، وأنسته تذوّق الأفراح الصغيرة، ومنعته من تقبيل الأطفال الصغار أمام عامّة الناس، أو صادرت دموعه إذا أرادت أن تنهمر بفقدان صديق أو رفيق درب، أو إذا جاشت أمام ذليل يستنزل لإطعام صغاره ولا يجد مورداً. وفوق هذا وذاك، استنجد بربّه وقال: ربي زدني علماً وحكمة وحباً، ربي خذ مني ما شئت، واحفظ ما وضعته في قلبي وفي قلمي من حب الحرية، وأصالة الفكر، وسخاء العطاء، واحترام الغير في علمه وفي جهله، في صمته وفي صراخه، وحتى في صلاته او كفره.

ـ وبينما كان أبو فادي كذلك، يرتب أفكاره ومشاعره، إذا برسالة تهنئة تأتيه من محارب قديم، يحفظ له الودّ ويقول له الأشياء كما هي كلما التقيا:

"كم تمنيت لقاءكم، لدى مروركم الأخير في ديارنا، حتى نراكم أخر مرة، قبل المشيخة، مرتدياً هندامك السابق ببساطة. وصيّة واحدة أوصيك أن تحمل شارة المشيخة خشبية على صدرك، وتعلّقها بسلك جلدي، او سلسلة بسيطة، وتسوق سيارتك بنفسك، وتستمر في ارتداء الجينس في أسفارك، حتى تبقى كما عهدناك قريباً من الناس. وأمنية أخرى: لا تكفّ عن كتابة همساتك.

ودمت لصديقك الوفي ن. ع.

٧٢ في مضيف الشيخ

... ودارت "دلّة" القهوة على الضيوف الكرام، والقهوجي "يطقّ" الفنجان بالفنجان قبل ان يصبّ لنفسه او لاّ، كما تقضي التقاليد العربية الأصيلة: بقايا عادات عشائرية للدلالة على ان القهوة خالية من أيّة مادة مدسوسة! وتتشعّب الأحاديث حول شؤون القبيلة والأفخاذ والعشائر... مَن سُرقت ناقته في وضح النهار ولا مَن به يستجير؛ مَن سقط وَتَدُ بيته بسبب القصف المعادي اليومي ولا من نصير؛ مَن شردت نعجته الرخماء عن القطيع لدى الورود ولم تعد؛ ومَن خيّبت بنت عمه انتظاره وأجيج قلبه المتيّم، فعشقت أسمر أهيف من القبيلة المجاورة...

وكان بين القوم بدو وحضر، كل منهم يشكو ضيمه! فبادر بغدادي تبدو بوادر النعمة على وجهه وقال: وأنا ماذا أقول؟ ينقطع الكهرباء عندنا ٣ ساعات كلّ سيتْ! فطمأنه موصلي خزرجي بقوله: بل ينقطع عندنا ٢٠ ساعة كل ٢٤، فتسكت المآذن، وتظلمّ الكنائس، وتتعثر الناس في ذهابها وإيابها، ويغفو الطلبة على وميض الشموع فوق كتبهم، فيستحيل الدرس عليهم وبالاً، وإذا استجار بعضنا بمولّدة الحي، أتانا التيار بالتقسيط متقطعاً، متموجاً... وكأنه سراج علاء الدين رحمه الله!!

ونهض رجل وقور دبّ الشيب في يافوخه منتخياً لفلذات أكبادنا أطفال "الترافيك لايت" الذين، بعمر الزهور والياسمين، دفعتهم الحياة او دفعهم ذووهم الى التشرد والتسوّل، ليس على "باب الله"، بل على مفترقات الطرق وفي محطات البنزين، عرضة للمذلة وما يتبعها. وتنحنح ثالث وهو يكركر حبّات سبحته: يا ويل يومنا من

هؤلاء المتسكعين العاطلين الذين امتهنوا الربح من حيث لم يعملوا، فينتظرون كرَماً من مغترب بعيد او من إرث عتيد كي يتزوجوا، وكأني بلسان حالهم يقول: اليوم خمر وغداً أمر! فينتفض شاب تسلّل الى مجلس القبيلة ورفع صوته معترضاً: أين فرص العمل يا عمّ كي نعمل، فهي أشحّ من أمطار العام الماضي، وأين الفلوس كي نتزوج، فهي أنضب من جبّ يوسف؛ وأين الأمل بالمستقبل الذي ملّلْنا من ترقبّه، وقد طوينا من عمرنا أجمله في حمل السلاح... لعن الله الأميركان الذين فوّتوا علينا فرص الحياة وصرنا لا همَّ لنا سوى توقّع غربانهم الكواسر كل يوم، أو الانجرار وراء تجربة الهجرة! وهنا انبرى رجل في العقد السادس من عمره وهو يرتشف قهوته مع حسرة عميقة ليتكلم عن مآسي الحصار اللامعقول والهجرة وتشتت شبابنا وعيالنا على طرقات الدنيا.

وتحدث آخر عن غرائب وعجائب شهدها أو سمع بها هذه الأيام وقال: رجل من واجهة القوم، يتفّق مع زوجة أحد أجرائه، فيهربان سوية، فيغيّران هويتهما ودينهما، ويتركان الزوج المنكود صفر اليدين يندب حظه ويبكي طفليه القاصرين اللذين الحقا شرعاً بالماكرين! يا للزمن الردئ!...

- ما هذا التشاؤم يا إخوان! قالها شيخ عجوز لا تغادر الابتسامة شفتيه: اشكروا الله على الأمطار الأخيرة التي روت زروعنا وأعادت البسمة الى وجوهنا وفتحت أبواب الخير أمامنا! لماذا لا ترون من الدنيا إلا سوادها؟ تفاءلوا بالخير تجدوه! وحكى لهم هذه الطرفة من ملاحم الأقدمين: قيل ان سائلاً أتى الى باب رجلٍ من أغنياء أصفهان فسأل شيئاً لوجه الله. فسمعه الرجل فقال لعبده: يا مبارك قل لعنبر، يقول لجوهر، وجوهر يقول لياقوت، وياقوت يقول لألماس، وألماس يقول لفيروز، وفيروز يقول لمرجان، ومرجان يقول لهذا السائل: يفتح الله عليك. فسمعه السائل فرفع يديه الى السماء وقال: يا رب قل لجبرائيل يقول لميخائيل، وميخائيل يقول لدردائيل، ودردائيل يقول لكيكائيل، وكيكائيل يقول لإسرافيل، وإسرافيل يقول لعزرائيل أن يزور هذا البخيل!!! والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

٧٣ روديسيا وجيفارا وكروبسكايا

... وخرجتُ لتفقّد الرعيّة... أزقة ضيّقة متعرّجة متشعّبة كالمتاهات... بيوت متهدمة وسقوف نصفها مستلق على الحضيض والنصف الآخر متصدّع عالق بين الأرض والسماء، باتت كالأنقاض المهملة أو الآثار الغابرة، تنتظر موسم التنقيبات...، أو تنتظر مصوّراً فناناً يستخرج من هذه الخرائب لوحات لمعارضه الشخصية! وبين هذه الأنقاض بقايا دور عتيقة كان لبعضها مجدها التليد. وبين ركن وآخر غرفة أو زاوية أعيد تأهيلها للسكن البشري، وكان الأولى أن تكون مأوى للأرانب.

هذا هو الوسط القديم الباقي من قريتي... وسَط هجرَه سكّانه الأصليّون فأوى اليه شعب البؤساء والمقهورين... يسترون فاقتهم بين أنقاضه. ورحتُ أستنشق رائحة هذه الحجارة العتيقة وقد تأرجحت مشاعري بين تذوّق ذكريات الطفولة والحسرة المرّة لما تأويه هذه الأزقة المنسيّة: بقايا عائلات تشتت أبناؤها على طرقات الدنيا، أو شقّوا طريقهم في الحياة، تاركين وراءهم أباً أو أماً عاجزين إلا عن البكاء على فلذة الأكباد. زوجان شابّان انسلخا حديثاً عن بيت الأب، فلجأا الى ما تبقى من بيت الجدود، أو باعا ذهب العرس ليشتريا "خربوشا" على قياس استقلاليتهما. أسرة كادحة تكسب لقمتها بعرق جبين الزوج الذي يطوف شوارع البلدة الجديدة بعربته التي يدفعها أمامه كسفينة نوح، حاملة كوكتيلاً من الحاجات المتنوعة الصغيرة، بينما تبقى الزوجة في الدار للعناية بالدجاجات ورعاية الصغار.

حفظ الله الصغار! وجوه ضاحكة وصاخبة... تعجّ بهم بيوت ضيّقة وكأنها أعشاش العصافير تمدّ أعناقها، لولا آثار الحصار الجائر وسوء التغذية على سيمائها، لقرأت فيها الجمال والإغراء... لدى الصبيان قبل الصبايا. غزارة في الإنتاج، ام خصوبة يعتبرها بنو جلدتي بركة من الله الذي يرزق كل طير رزقه... فليكونوا سبعة او عشرة او "درزينة" كاملة كأولاد يعقوب...! ما شاء الله!

أما الأسماء فحدّث ولا حرج... مهرجان قلّ نظيره في الدنيا بتنوّع ألفاظه، واختلاف مصادره، وغرابة اختياراته... ما رأيك بطفلة "خُدَيدية" اسمها روديسيا، او كروبسكايا، او كوادالوبي، او ساندرا، او روزيتا، او سورينا، او بيريفان، او فالنتينا، او نتاليا، او هارندا...! وماذا تقول عن طفل اسم أبيه مارزينا، واسم امه وارينة، واسمه هو جيفارا، او بودلير، او ريكار، او بركان، او بحر، او ريفان، او نورمان، او... أو...؟

لا تسل عن معاني الأسماء من أصحابها، ولا في أية بقعة أنت من الكرة الأرضية!

لو أجريتُ استفتاءً بين أبناء قومي الكرام، لما وجدتُ أبلغ من هذا على أنهم من متتبعي المسلسلات المدبلجة، الأمناء حتى استنساخ أسماء أبطالها! ولو مللتَ من الأسماء العربية والتقليدية التي ثقل بها قاموس الأعلام، لما وجدتَ مثل هذه النماذج الشمولية التي تجمع في بقعة جغرافية واحدة أسماء الفرنج والعجم والروس والمكسيك والكرد والهنود الحمر... فيا غربتاه عليكِ يا عشائر تغلب وعدنان وقحطان وسريان!!

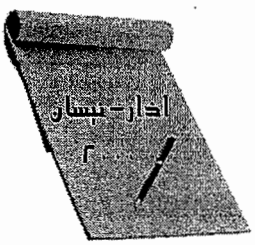

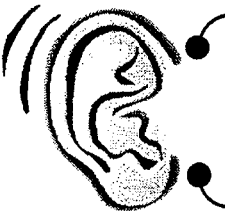

الصعاليك

٧٤

في اللغة العربية -وهي سيّدة اللغات طبعاً- كلمات وتسميات لا تُنسى، ومنها كلمة "الصعاليك"... أتذكرها كلما ارتطم نظري بإنسان بائس توشّحه الإملاق، او بمتسوّل يجرّ أذيال فاقته، او أحدِ هؤلاء الجوّالين الذين امتهنوا استغلال طيبة الناس فيخدعونهم باستنزال الانبياء والأولياء ليشفعوا في حالهم، لأن مصائب الدنيا كلّها انصبّت على رأسهم بغتة. ولما أردت التأكد من دقة معنى هذه الكلمة، لجأت الى المنجد، كما أفعل كلما وقعت في ضيق لغوي. فقرأت ان "الصعلوك"، وجمعها "صعالك" و"صعاليك" تعني الفقير، والضعيف؛ وأن للكلمة فعلاً على وزن "تفعلل" أي "تصعلك" ومعناه: افتقر وأملق. أما من أين تشتق الكلمة، او من أية لغة أعجمية تسللت الى اللغة العربية المجيدة، فلست أدري، لا لعمري!... ويضيف القاموس بنيّة صافية قوله: أما صعاليك العرب فهم لصوصهم وفقراؤهم!

صعاليك، إذن هؤلاء المجهولون الذين يركبون سواد الليل، ويسطون على بيوت الناس، فيكسرون الأقفال ويخلعون الأبواب، ثم يقتحمون الحجرات ويعبثون ويبعثرون بحثاً عن الخفيف والثمين من الأصفر او الأخضر او الأزرق، ويحملون على أكتافهم ما ثقل من الأجهزة والأثاث والثياب، بينما الحراس وخفراء الليل، إن وجدوا، نيّام!!

صعاليك، إذن، هؤلاء الذين يفترشون الأرصفة ببضاعة أسيادهم المحمولة او المنقولة، منادين، متشبّثين، غامزين، مع

الفضوليين المتسكعين حواليهم، على مدى طول بعض الشوارع وعرضها، حتى أمسوا ظاهرة حضارية في زمن الحصار الظالم!!

صعاليك، إذن، هؤلاء النسوة اللواتي أملقت جيوب أزواجهن، او اولئك الكادحون الذين تقوّست أعناقهم وتجعدت جباههم وأياديهم من كدّ الأيام ولم يقووا على إنخار شيء للسنوات العجاف، فتدافعوا على أبواب "الكاريتاس" ليسمعوا كلاماً قد لا يمتّ بشيء إلى روح الكاريتاس!!

أإلى شعب الصعاليك تنتمي تلك العجائز المنقطعات، أو الأسر المحشورة في أعلى القلعة، وفي تعاريج الأزقة القديمة المتدحرجة، في بيوت هرمة متصدّعة ضيّقة، لا يعرف بعضها لون الشمس، حتى لتتساءل: تُرى كيف يمكن للحياة البشرية أن تنمو هنا، وكيف للطفولة أن تجتاز الى الصبوّة والنضارة تحت هذه الأقبية؟!

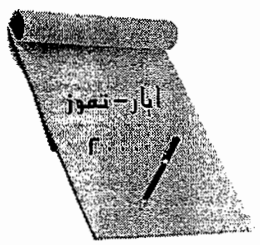

٧٥ رسالة من "تلفات الدنيا"

أطلّت الشمس علينا من نافذة الطائرة، قبل أية بقعة أخرى في العالم، عندما كنا في طريق العودة، نسبَح فوق الغيوم الداكنة التي لفّت الجزيرة منذ أيام، وأغرقتها بوابل أمطارها التي لا تعرف الكلل، لا في الليل ولا في النهار. أوَ ليست الدنيا شتاء قارساً في هذه البقاع، بينما "ينقلي" الناس في أتّون صيف حارق في بلاد الرافدين، حيث يصبح انقطاع الكهرباء فيه وعودته سيّان!

وبين تثاؤب وآخر، رحت أستذكر وقائع أطول رحلة في حياتي إلى "تلفات" الدنيا. فرأيتني في أعلى برج (اوكلاند) المستحمّة في مياه المحيط الهادئ، والمستلقية كحوريّة الأساطير على التلال الخضراء، مستعرضة مفاتنها. ثلاثون ساعة من الطيران فوق البحور والمحيطات والصحارى، ناهيك عن انتظارات المطارات لساعات طويلة، كي أصل الى "كعب" الدنيا! سأبقى أتذكّر صورة هذا الرجل، في صدر قاعة مطار هاملتون: رجلاه الى فوق، على أرض نيوزيلندا، ورأسه الى تحت بإتجاه القطب الجنوبي. أوَ تكون هذه هي بلاد "الواق واق" التي تكلّم عنها الأقدمون؟ لعل ما قاله أحد مغتربينا صحيح، عندما أشار لي بإصبعه على الخارطة، إلى اسم مدينة لهم تُدعى في لغتهم "واكا واكا"!

لغتهم...؟ كم فيها من أسماء، تخالك تسمع مقاطع من لغتنا الجميلة: "كورا بابا"، "تونكا ريرا"، "وانكا نوري"، "كاياناتا"، "واناكا"،

"ماما لوكا"، "واي كاتو"، و"واي تومو"... أيكون آباؤنا العرب او أجدادنا السريان أو إخوتنا الأكراد قد تزاوجوا مع شعب الماوري او الكبوي!... هنا رأيت رجالاً ونساءً يسيرون حفاة في الشارع وكأنهم في غرفة الحمّام - ويبدو أن ذلك أمر اعتيادي... ورأيت أناساً يذرعون الشوارع وهم يتكلمون مع أنفسهم في أجهزة صغيرة كالكف ملصقة بآذانهم، قيل لي إنها هواتف نقالة، ترافقهم في كل مكان، بواسطتها يقضون أشغالهم ويدفعون فواتير مشترياتهم عن بُعد، ويستقدمون بطاقات سفرهم... ولهم فيها مآرب أخرى. ورأيت بأمّ عيني أسرابَ الكنغر تسرح في الطبيعة طليقة، وطيور الببغاء عند رجليّ، والطاووس يختال أمامي ويحتفي بي، نافشاً ريشه المزركش في قوس قزح من أروع ما رأيت. فتشابكت الصورة عندي مع بعض من أبناء البلد الأصليين الذين جاءوا هنا قبل أربعين ألف عام، عاشوا حياة جني وقنص. فوجدتُ احدهم، شبه عار، أي بلباسهم القومي، الذي ورثه عن أبينا آدم، عليه السلام، متربّعاً على رصيف أوبرا سيدني وهو ينفخ عازفاً في جذع شجرة نحيف مثقوب كالقصبة، وأمامه كوفيّة تتساقط فيها نقود المعجبين... او المحسنين. ولعلي في المرة القادمة سأجد واحداً من بني قومي جالساً في مدخل الجسر الحديدي الأحدب العملاق وهو يعزف على "الماصول" او الربابة!

وعلى ذكر بني قومي، فإنهم كُثر في تلك الديار النائية، قدموا إليها برّاً وبحراً وجواً، أو نزلوا إليها كالنيازك فجأة، والشهادة لله أقولها، إن أرواحهم وقلوبهم وعواطفهم وأفكارهم وجوارحهم تبقى كلّها عراقية، عبقة باسم الوطن والحنين الى رائحة ترابه وموّالاته. صدى تراتيل كنائسه وأديرته، هي التي تسند غربتهم وتغذّي إيمانهم. وكلما التقوا معاً في رحاب كنيسة، او حول البرياني والكبّي أو الدولمة والباجة، التقوا بهويتهم الضائعة! وعندما يأتيهم أحد من أرض الجدود، يستقبلونه كنبي آتٍ من الجنة!

٧٦ أودعناكم... في أمان الله

أصدقائي الأعزاء

منذ ثلاثين سنة وأنا أهمس في آذانكم... وإذا لم تتخدّش حتى الآن فلأنكم طيّبون!

لقد طرقنا أبواباً عديدة وظلّ بعضُها موصداً بعناد أو مفقوداً مفتاحهُ حتى اليوم. كما دققنا مسامير كثيرة في آذان كثيرة، وظلّ بعضهم مصمّماً على ألا يسمع حتى إذا سمع. حقاً لقد مرّ كثير من الماء تحت جسور نينوى، كما يقول أصدقاؤنا الفرنسيون، منذ أطلقتُ الهمسة الأولى، وكانت إحداها حول الساعة المنتصبة كالرقيب الذي لا ينعس في وسط المدينة القديمة. ولقد آلت بعض الهمسات وبالاً على صاحبها، كهذه التي غضب لها متتبع غيور دفاعاً عن مار يوسف يوم توهمتُ بأنه أبو يسوع وليس مربيه، وتلك التي أعادها قارئ ظريف الى الحمار الذي كتبها يوم وضعتُ صلاة معذّب على لسان أبي صابر، والأخرى التي لفتتْ أنظار الباب العالي في روما، يوم تجرأتُ فخاطبتُ قداسة البابا مباشرة، او الأخرى التي كادت تفسد العلاقة بين نسيبين، إذ شك أحدهما بأن الاخر -وكان اسمه صدفة أبا فادي- يشهر به نكاية!!!... وجَلّ مَن وحده فاحص الكلى والنوايا! ولكني علمتُ أيضاً أن عدداً غير يسير من القرّاء يقلبون طبيعة الأشياء فيقرأون المجلة "بالمقلوب"، أي أنهم يبدأون بالصفحة الأخيرة قبل الأولى، ويدخلون الدار من باب الخدم او باب المطبخ، لا من الباب الملوكي...

واليوم وقد شارفنا على الهمسة المئتين تقريباً قررنا، بكل ديمقراطية، ان نقفل هذا الباب، متكلين على الله، وراجين ألا يكون لكم إعتراض! تماماً كما كان يفعل هذا الصديق الطيّب الذي كان مسؤولاً عن إحدى الأخويات، فيقول في الهيئة العامة بكل هدوء: "لقد قررنا سفرة الى دير مار بهنام... أش تقولون؟" ... وماذا نقول إذا كنتَ قد قررت؟!

بالتأكيد لا نقفل الباب لقلة المواضيع أو خشية من المقالب... ولا لشحّة مادة البروفين في السوق... او لأن الوحي قد اختفى باختفاء آخر معترض، فجأة، على تسييرّ طائرات مدنية لنقل المسافرين بين بغداد والبصرة والموصل، ولا لأن كل شيء أصبح على ما يرام في أفضل العوالم... او أنه لم يبقَ لنا سوى أن نقول: عاشت العولمة وعاش النظام الجديد! لا، لن نقول ذلك! لأن طائرات الأميركان لا زالت تهدر فوق رؤوسنا كل يوم،ولا زال موضوع عدم نزول المطر يشغل تفكيرنا، مزارعين ومستهلكين، ولا زالت حفر كثيرة في شوارع كثيرة ومتجاوزون كثيرون على أرصفة كثيرة، ولا زال الشباب يبحثون عن عمل ولا يجدون، والصبايا ينتظرنّ الصبيان ولا يأتون... بل يذهبون الى حيث لا يدرون...

سأعمل جاهداً للإستمرار في الحديث مع القرّاء والسامعين بطرق أخرى... وقد نكون في مرحلة تتجه فيها الأعين والأصابع الى العمل قبل الحديث، والى التخطيط قبل الشروع...

وكان الله بعونكم يا أصدقاء الكلمة الظريفة والبسمة الغامزة في هذا الزمن الكئيب...

٧٧

إلى أبو فادي مع التحيات

سأحكي لكم (حكاية قديمة):

كان يا ما كان، ليس في قديم الزمان، إنما في هذه الأيام، إذ ﴿يحكى أن﴾ جماعة من الناس ذهبوا ﴿عند العرّافة﴾ ليستشيروها في أمر ما، ورووا لها ﴿والعهدة على الراوي﴾، ان شيخاً جليلاً كان يهمس في آذان أبناء عشيرته مدة ثلاثين عاماً دون كلل أو ملل. فيصعد إلى ﴿برج مراقبة﴾ ويستقصي الأحداث ويستخبر من سائق تاكسي أو حلاق... أو يحمل حقائبه سائحاً ﴿كابن بطوطة﴾ في رحلات لا تنتهي، أو كمغامر باحث، أو ﴿كصحفي مستور﴾. اياماً وليالي قضاها وهو يهمس في الأذهان ويدقّ المسامير في الآذان. ثم فجأة ومن دون أي سابق إنذار ﴿قرّر﴾ و﴿بكل ديمقراطية﴾ أن يتوقف... ترى هل تعب فقرر ﴿التقاعد في الخمسين﴾ مصرًا على ألا يكتب بعد عن ﴿مذكرات وجاجته﴾ ولا عن ﴿استغاثة حماره﴾؟

فأشارت علينا العرّافة أن نبعث إليه ﴿تلكس مستعجل﴾ أو ﴿بطاقة عيد﴾ ﴿... مع التقدير﴾ نطالبه فيها ﴿بحوار ساخن... على باب الجنة﴾، لأنه عوّدنا على ﴿تقاليد﴾ معيّنة على مدى سنوات طوال، حاملاً ﴿همومنا المخنوقة﴾، تتفجر في قلبه قبل

الفهرس

كلمة الناشر	١٩ تموز ٢٠٠٧	٧
مقدمة المجموعة الأولى	تشرين الثاني ١٩٨٣	٩
مقدمة المجموعة الثانية	١٥ أيار ٢٠٠٧	١٣
١. مشاهدات من موسكو	كانون الأول ١٩٨٣	١٧
٢. أخي عبد السلام	كانون الثاني ١٩٨٤	١٩
٣. لو كنتُ	شباط ١٩٨٤	٢١
٤. عصافير الجنة	آذار ١٩٨٤	٢٣
٥. إيحاءات نيسانية	نيسان-أيار ١٩٨٤	٢٥
٦. ابن بطوطة وأسفاره	حزيران-تموز ١٩٨٤	٢٧
٧. كلام الله إلى عبده سمعان	آب-أيلول ١٩٨٤	٢٩
٨. كيسنجر اسحب كلامك رجاءً	كانون الثاني ١٩٨٥	٣١
٩. للعرض فقط!	شباط-آذار ١٩٨٥	٣٣
١٠. محروسة يا عروسة	نيسان ١٩٨٥	٣٥
١١. ايمان الفقراء	أيار ١٩٨٥	٣٧
١٢. كيف تبني تعاستك بيدك	حزيران-تموز ١٩٨٥	٣٩
١٣. ابن بطوطة وأسفاره (٢)	آب-أيلول ١٩٨٥	٤١
١٤. نحن بخير والحمد لله!	كانون الثاني ١٩٨٦	٤٣
١٥. حوار صحفي مع عبقري ناشئ	شباط ١٩٨٦	٤٥
١٦. اولف... النخلة!	آذار-نيسان ١٩٨٦	٤٧
١٧. عادل صباغ الأحذية	حزيران ١٩٨٦	٤٩
١٨. ورطة غريبة	آب-أيلول ١٩٨٦	٥١
١٩. أشباح المدينة	كانون الأول ١٩٨٦	٥٣
٢٠. ردّ اعتبار اليهم	كانون الثاني ١٩٨٧	٥٥
٢١. رسالة إلى ما وراء البحار	شباط ١٩٨٧	٥٧
٢٢. أصناف الفريسيين	آذار-نيسان ١٩٨٧	٥٩
٢٣. من نبي متقاعد إلى يسوع	حزيران-تموز ١٩٨٧	٦١

٢٤. مبايعة	آب-أيلول ١٩٨٧	٦٣
٢٥. حكايات موصلية	تشرين الثاني ١٩٨٧	٦٥
٢٦. بدر الدين لؤلؤ	كانون الأول ١٩٨٧	٦٧
٢٧. رسالة من مقبرة	كانون الثاني ١٩٨٨	٦٩
٢٨. السعادة بين يديك	نيسان ١٩٨٨	٧١
٢٩. في رواق سليمان	كانون الأول ١٩٨٨	٧٣
٣٠. برجك ايه ...!	كانون الثاني ١٩٨٩	٧٥
٣١. اضحك للدنيا بتضحكلك	شباط-آذار ١٩٨٩	٧٧
٣٢. في القدس يموت البابا	نيسان ١٩٨٩	٧٩
٣٣. إن لم تعودوا كالاطفال...	أيار ١٩٨٩	٨١
٣٤. "عمري ستة عشر عاماً"	حزيران-تموز ١٩٨٩	٨٣
٣٥. رسالة سرية إلى رجال العرب	آب-أيلول ١٩٨٩	٨٥
٣٦. محطات مسافر	كانون الأول ١٩٨٩	٨٧
٣٧. افتحوا الشبابيك	كانون الثاني-شباط ١٩٩٠	٨٩
٣٨. هموم وثنية في زمن الربيع	آذار ١٩٩٠	٩١
٣٩. الطبيب والسكير والذبابة	نيسان ١٩٩٠	٩٣
٤٠. أنّات متفرقة!	أيار ١٩٩٠	٩٥
٤١. بقرة الشيخ	حزيران-تموز ١٩٩٠	٩٧
٤٢. من هالة إلى أبيها العائد	آب-أيلول ١٩٩٠	٩٩
٤٣. عند العرّافة	كانون الأول ١٩٩٠	١٠١
٤٤. حالة النعمة	كانون الثاني-نيسان ١٩٩١	١٠٣
٤٥. أحلام الفقراء	أيار-تموز ١٩٩١	١٠٥
٤٦. عن الحمير والحملان	آب-تشرين الأول ١٩٩١	١٠٧
٤٧. أبونا شينا	تشرين الثاني-كانون الأول ١٩٩١	١٠٩
٤٨. ولو حفنة من التبن...!	كانون الثاني-شباط ١٩٩٢	١١١
٤٩. بطرس ويوحنا أمام مجلس الأمن	آذار-نيسان ١٩٩٢	١١٣
٥٠. مسرح الساعة العاشرة	كانون الثاني-آذار ١٩٩٣	١١٥
٥١. فلسفة التعاون	نيسان-حزيران ١٩٩٣	١١٧
٥٢. إلى خرافي العزيزة	تموز-أيلول ١٩٩٣	١١٩

قلمه... يكتبها، إما من ﴿قاعة القريسة بربارة﴾، أو في ﴿مضيف الشيخ﴾، أو ﴿تحت الشجرة العتيقة﴾، مروراً بأقاصي ﴿شمالنا الحبيب﴾ حتى وصل إلى ﴿تلفات الرنيا﴾. لقد كان ﴿شاهر عيان﴾ في طرقات حياتنا، وعلى ﴿حفريات﴾ قلوبنا وأمانينا، وكانت همساته ﴿كبريد من السماء﴾، أو ﴿كرسائل من وون ڤيخوت﴾ إلى سيدانه وآنسانه وساداته، أو إلى ﴿الصعاليك﴾ أمثالنا، أو إلى بطلات القرن الحادي والعشرين ﴿روويسيا وجيفارا وكروبسكايا﴾... أو إلى ﴿صغيرته ندوى﴾.

ألم يحن الوقت ﴿لعودة المغترب﴾ إلى ﴿وفره العتيق﴾...؟

نحن ﴿لا نتهم﴾ شيخنا، لأن ما له من ﴿شؤون وشجون﴾ قد يكفيه مؤونة الشتاء والصيف. ولكننا ناديه (نداء الأبطال) أن يعود إلى حلبة المصارعة ﴿مع عرنان القيسي﴾، لأننا نعلم أنه ﴿حكيم من شارف المرينة﴾ و﴿المقاتل من أجل حبيبته﴾. لذا نترجاه بحق ﴿حبّيه الكبيرين﴾ أن ندور الدلة من جديد في المضيف ليرتل لنا ﴿مزموراً من الحياة﴾ ويعود إلينا ﴿كالصديق﴾ فتعود إلينا ﴿حالة النعمة﴾ ويعيد إلى أسماعنا

﴿فلسفة التعاون﴾، ولو بقدر حفنة من المسامير. ألا تريد أن ﴿تقرع الأجراس﴾ ثانية؟ وإلا سنضطرّ إلى إحضارك محقوراً أمام ﴿مجلس الأمن﴾... ألا سارع وحلّ لنا ﴿هذه العقدة﴾!!

وأخيراً وليس آخراً ﴿أمنياتنا للعدو الجريح﴾ هي أن تعود إلينا ﴿ببهلوانياتك الهامشية﴾ و﴿وروشاتك في سنجار﴾. إن ﴿أجراونا البابليين﴾ كانت ﴿أولوياتهم للبناء﴾، أما نحن أحفادهم الطفرانين، فأولوياتنا للمسامير ندق في الآذان... أرجو أن لا يكون الجواب إصراراً ﴿أودعناكم ... في أمان الله﴾، لأنه ﴿من غير المعقول﴾ أن ننسى ﴿خرافك الأعزاء﴾ ونقول لهم: ﴿با...ع، با ...ع﴾!! و﴿با ...ي ... باع﴾!!!

فادية

كتبت في ميلاد سنة ٢٠٠٠
جواباً لآخر همسة
بعنوان:
أودعناكم... في أمان الله

٥٣. من غير المعقول...	تشرين الثاني-كانون الأول ١٩٩٣	١٢١
٥٤. حوار ساخن على باب الجنة	كانون الثاني-آذار ١٩٩٤	١٢٣
٥٥. حكاية شهر شباط	نيسان-حزيران ١٩٩٤	١٢٥
٥٦. التقاليد	تموز-تشرين الأول ١٩٩٤	١٢٧
٥٧. فرعون والضربات العشر	تشرين الثاني-كانون الأول ١٩٩٤	١٢٩
٥٨. اضحك مع "الفكر المسيحي"	كانون الثاني-شباط ١٩٩٥	١٣١
٥٩. هموم مخنوقة	آذار-أيار ١٩٩٥	١٣٣
٦٠. عمر الخيام يأبى أن يكون شاعراً	حزيران-أيلول ١٩٩٥	١٣٥
٦١. في قاعة القديسة بربارة	تشرين الأول-كانون الأول ١٩٩٥	١٣٧
٦٢. يعجبني... ولا يعجبني!	كانون الثاني-آذار ١٩٩٦	١٤٠
٦٣. البقرة الضاحكة	تموز-أيلول ١٩٩٦	١٤٢
٦٤. هذه العقدة من يحلها؟	كانون الثاني-شباط ١٩٩٧	١٤٤
٦٥. يوم من الملكوت	آذار-أيار ١٩٩٧	١٤٦
٦٦. ملاحظات من الطرق	تشرين الأول-كانون الأول ١٩٩٧	١٤٨
٦٧. بريد السماء	آذار-نيسان ١٩٩٨	١٥٠
٦٨. حدث سنة الألفين	أيار-تموز ١٩٩٨	١٥٣
٦٩. سيدتي	تشرين الثاني-كانون الأول ١٩٩٨	١٥٦
٧٠. ٢٠٠١	كانون الثاني-شباط ١٩٩٩	١٥٩
٧١. الشيخ أبو فادي	تشرين الثاني-كانون الأول ١٩٩٩	١٦٢
٧٢. في مضيف الشيخ	كانون الثاني-شباط ٢٠٠٠	١٦٤
٧٣. روديسيا وجيفارا وكروبسكايا	آذار-نيسان ٢٠٠٠	١٦٦
٧٤. الصعاليك	أيار-تموز ٢٠٠٠	١٦٨
٧٥. رسالة من "تلفات الدنيا"	آب-تشرين الأول ٢٠٠٠	١٧٠
٧٦. أودعناكم... في أمان الله	تشرين الثاني-كانون الأول ٢٠٠٠	١٧٢
٧٧. إلى أبو فادي مع التحيات	ميلاد سنة ٢٠٠٠	١٧٤

أنجزى دار
سيليا للنشر
طبع
همسات أبو فارى
2007 ب12

منشورات
مركز الدراسات الكتابية-الموصل

ملفات الكتاب المقدس

- مجلة بيبلية متخصصة معربة عن الفرنسية **Les Dossiers de la Bible**
- عمد م.د.ك. منذ عام ٢٠٠٠ إلى تعريبها ونشرها بوتيرة ٤ أعداد في السنة.
- يقدم كل عدد ملفا بأحد الأسفار المقدسة أو أحد المواضيع البيبلية الهامة.
- هي في سنتها الثامنة وقد ظهر منها ٣٠ عددا حتى تشرين الأول ٢٠٠٧.

المجموعة الكاملة (١-٣٠)	٢٢٠٠٠ د.
أعداد ٤ أعوام: ٢٠٠٤-٢٠٠٧ (١٥-٣٠)	١٣٠٠٠ د.
أعداد عامي ٢٠٠٦-٢٠٠٧ (٢٣-٣٠)	٨٠٠٠ د.

سلسلة أبحاث كتابية

- مجموعة كتب بيبلية تمكنه من الدخول إلى عالم الكتاب المقدس وفق منهج علمي رصين وتوجه راعوي جاد.
- صدر الكتاب الأخير رقم ١١ : **يسوع الذي هو المسيح**، تعريب: م.جرجس القس موسى
- سيظهر الكتاب رقم ١٢ في بدء عام ٢٠٠٨ بعنوان:

  من أجل إيمان جاد، تعريب الأب البير أبونا
- تتوفر المجموعة الكاملة من السلسلة (١٠ كتب) بسعر ٣٠٠٠٠ دينار
- يتوفر الجزءان من "قراءة في العهد الجديد" بسعر ٣٠٠٠ دينار فقط.

دوريات وكتب مستنسخة

- عمد م.و.ك. منذ أكثر من عشر سنين إلى تكثير دوريات وكتب رصينة في شتى المجالات. فإلى جانب جريدة بيبليا (٥٤ عدد) ومجلة بيبليا (٣١ عدد) وسلسلة دراسات في الكتاب المقدس (٣٧ جزء)، هناك أكثر من ١٠٠ كتاب في القضايا اللاهوتية والكتابية والروحية والاجتماعية والتاريخية والتربوية... وكلها بأسعار مدعومة. (اطلب الفولدر بالمنشورات).

سلسلة مختارات الفكر المسيحي / ٥

همسات أبو فادي

يطلب من مكتبة بيبليا - الموصل
سعر النسخة: ٣٠٠٠ دينار

مركز الدراسات الكتابية
كنيسة مار توما
الموصل - العراق